رواية

محمود الوردانى

رائحة البرتقال



شرقيات

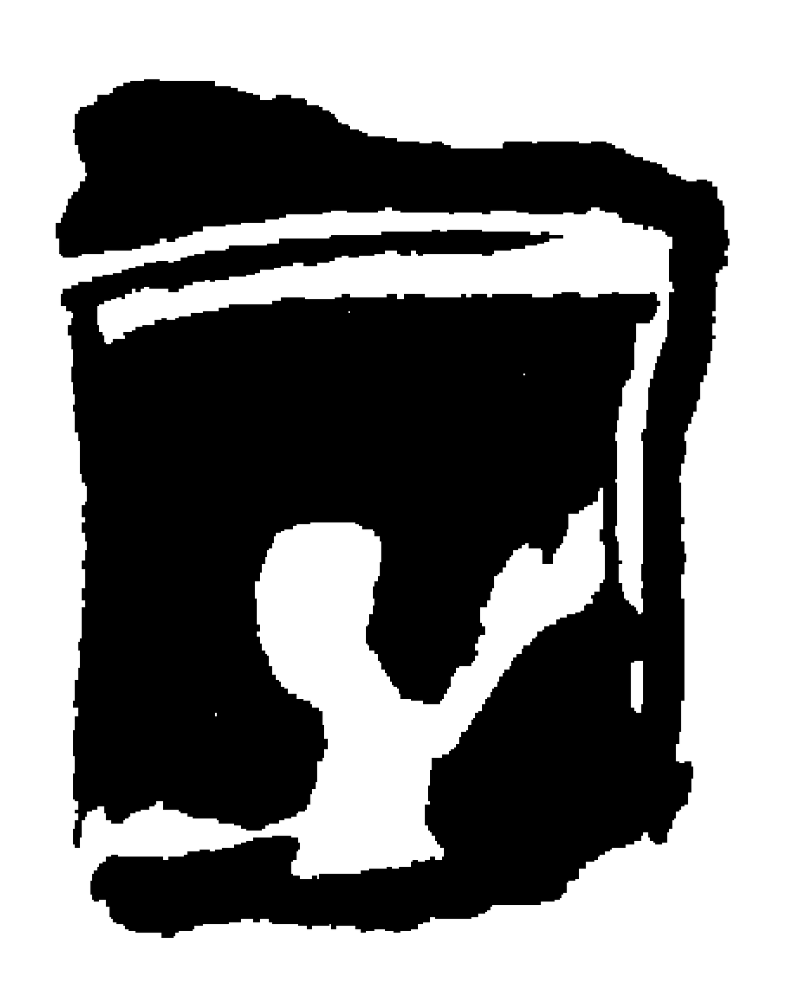


رائحة البرتقال

الطبعة الأولى ، ١٩٩٢

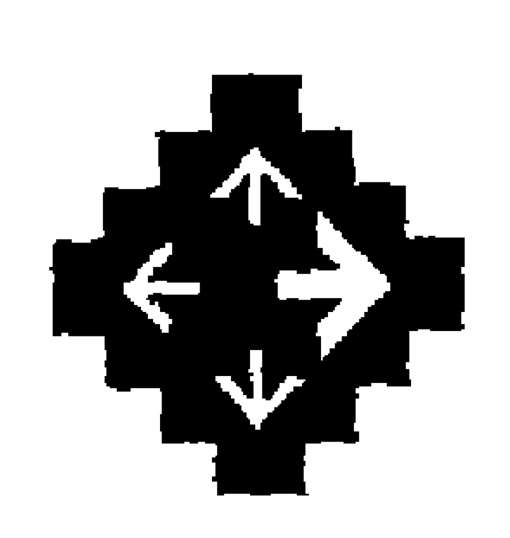
عمارة ٢ أ / شقة ٤ / المنطقة الجنوبية الشرقية
مساكن شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير
خلف شيراتون هليوبوليس / القاهرة
ت : ٢٦٩٥٧٣١

لوحة الغلاف :
رسم بالحبر الصينى
أحمد اللباد
تصميم الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :
محيي الدين اللباد



رائحة البرتقال

محمود الورداني



دار شرقيات للنشر والتوزيع

عباد الشمس

لم تكن زوجتى قد ولَدَتْ بعد ، لكننى شعرت على نحو ما ، أن هذا الطفل الراقد على يسارى ، فى فراشه الصغير المصنوع من القماش المشغول بزهور عباد الشمس الصفراء ، والمنصوب بين الأعمدة الخشبية الأربعة ، بالقرب من السرير الكبير الذى جلست على طرفه ــ شعرت اذن ان هذا الطفل هو طفلى .

فتحت عينى ، ونظرت عبر النافذة المفتوحة فى مواجهتى ، وعرفت أن الليل قد حل ، وها هو الهواء البارد يتدفق ويملأ الحجرة الصغيرة . كانت السماء داكنة ، غير أن النجوم البعيدة كانت تومض هناك . وفكرت فى أن علىَّ أن أنهض ، وبدأت فى البحث عن مفتاح النور الذى كنت أعرف أنه فى الحائط .

ثمة جسم معدنى اصطدمت به يدى ، رحت أتحسسه لأؤكد لنفسى أنه مفتاح الحياة القديم بجناحيه العريضين . بعد قليل ، أيقنت من فشلى فى الاهتداء الى مفتاح النور ، ولاح لى أننى لن أتعود على الظلام ، الى الحد الذى يمكننى من المكوث هادئا وانتظار أن تأتى هى . ثم قلت لنفسى ، وأنا أعود الى المقعد المجاور للسرير ، اننى قادر على النداء عليها ، فلابد أنها فى مكان ما قريبة منى .

فكرت فى سبب يجعلنى انتبذ هذا المكان القصى مستسلماً ، وتحمست

لترك مقعدى ، والاتجاه الى النافذة . كان الشارع خاليا الا من كلاب قليلة ، وامتداد لا نهائى لحقول معتمة . وانتبهت الى الطفل لما أحسست به يهتز فى فراشه الصغير . وقلت أن علىَّ أن أتجمَّل بالصبر لأن أمه لابد أن تأتى فى نهاية الأمر : تضيء لنا النور ، وتنشب بيننا معركة صغيرة حول أى شيء ، كعادتها عندما تعود من الخارج .

لم يطل وقوفى ، لأن الشك ساورنى ، حين لمحت أشخاصاً يتناثرون امام البيت ، لكن هيئتهم لا تبعث على الراحة . ابتعدت عن النافذة ، وأطللت بطرف عينى وشفتهم . ليس امامى اذن الا أن أنادى عليها ، ومالبثت أن ترددت خشية أن يسمعنى أولئك الواقفون فى الشارع . تقدمت نحو الطفل ، وانحنيت عليه ، ثم حملته على كتفى ، وفتحت باب الحجرة ، وأخذت أتلفت باحثاً عنها ، علّنى ألمحها فجأة . لحظتئذ ؛ واتتنى رغبة عنيفة فى أن أمد يدى ، وأعاود تلمس مفتاح الحياة المعدنى المختفى مرة أخرى .

لم يكن أمامى الا تلك الدرجات الحلزونية القليلة الضوء ، علىّ أن أقطعها حذراً ، فلم يكن هناك سور يمكننى الاستناد عليه ، حتى أفضى بى السلم الى الباب الحديدى الخارجى .

بنظرة سريعة مسحتُ المكان ، واتخذتُ طريقى بجوار الحقول المعتمة . هاجمتنى رائحة البرسيم القوية مختلطة برياح محملة بأتربة . ومن حولى تسللت الكلاب تتشممنى أنا والطفل . بعد لحظات ، قلت لنفسى أننى ربما أكون قد تسرَّعْت بنزولى ، وها أنا لا أرى أحدا يتتبعنى ، وقد يكون الأمر بكامله محض أوهام ، ومازالت أمامى فرصة لأعود أدراجى منتظراً رجوعها . على أننى مضيت بالرغم من ذلك ، حاملاً الطفل ومحاطاً بالكلاب التى ما لبثت أن تكاثر عددها ، وهى تقبل نحوى من كل الشوارع ، حتى انحرفتُ فى أول شارع ، فراحت الكلاب تغادرنى رويداً . عندئذ ؛ عرفت أننى قد غادرت

الحى بأكمله .

ما أن قطعتُ بضع خطوات ، حتى أحسستُ أن هناك من هو ورائى ، فأخذت أسرع قليلا ، مستسلماً للشوارع التى تقود الى حوارى ، تخرج بى الى شوارع ، تسلمنى لأزقة . ها أنا أسرع وأسرع وقد اعترانى حماس مفاجىء ، الى أن انحرفت الى تلكَ الشبكة المحكمة من الأزقة القصيرة التى تفاجئنى بتقاطعها مع أزقة أخرى ، وأنا أتطوَّح بينها غير قادر على الاختيار .

إنتهيتُ الى شارع طويل مضىء وضيّق . كان مزدحما يضج بالحركة والصراخ والأصوات العالية . رفعت عينى ، فالتقت بشرفات ونوافذ البيوت القصيرة المتجاورة ، والنسوة يتزاحمن مبتهجات وحولهن الأطفال يتنططون ويزيّطون . كن يتصايحن ويلوّحن لبعضهن ، فتختلط أصواتهن وهن يلوّحن بسواعد مكشوفة ، وقد انحنين بجوار الصوانى الممتلئة بالقلل تعلوها الأغطية النحاسية اللامعة فى الضوء . فكرت فى أن ثمة شيء قد حدث ولاشك ، غير أننى سرعان ما واجهتُ صفوف الدكاكين المتجاورة ، والمكدسة بصناديق كرتونية ، لكنها خالية الا لمن بدوا وكأنهم أصحابها ، يجلسون على مقاعدهم صامتين أمام الدكاكين ولا يلتفتون لى .

على أن جسم الطفل بدأ يثقل على ذراعى ، فخففت قليلاً من سرعتى ، حين داخلنى اطمئنان يسير ، لما اختطفت نظرة عجلى الى الوراء ، جعلتنى أعاود النظر بتمهل ، دون أن أجد مايبعث على الرِّيبة . أدَرْتُ الطفل على ذراعى ، واحتضنته لأتمكن من نقله الى ذراعى الأخرى ، وأنا أتأمله بحرص دفعنى إليه تململه المفاجىء ، ومحاولته دفع أعضائه عبر البطانية ذات المربعات الكحلية والبيضاء . كان وجهه مستديراً بلونه الخمرى الوضاء ، بينما كان شعره الفاحم يبدو ناعما على جبهته قبل أن يعود لاستغراقه ، وتسترخى ملامحه البالغة الضآلة .

وفكرت فى أنه قد فان أوان العودة ، وأن ما حدث قد حدث وانتهى الأمر . وسواء كنت مخطئا فى نزولى منذ البداية ، أو كنت قد تسرعت متعمداً لسبب أو آخر ، فان الأمر المؤكد هو اننى قد فقدت امكانية أن أعود مرة أخرى . ولاشك ان هذا يضاعف من حذرى . فما دمت غير قادر على العودة ، فلابد أن أتنبه لهذه الخطوات التى بدت بعيدة ، لكنها منتظمة ومؤكدة مع ذلك .

وجدتنى استرجع ملامح الطفل ، وأنا أغذ السير قليلا ، وتذكرت اننى كنت قد توقفت على باب العنبر فى المستشفى ، واستدرت لأراه للمرة الأخيرة ، وهو يبدو وكأنه يبادلنى النظر ، بل وربما كان يبتسم ضئيلاً قليلاً فى حضّانته الزجاجية ، وسط صفوف من الحضّانات الخالية والمشغولة . لحظتها إعترانى قلق وانقباض مباغت ، لمّا اكتشفت أننى لم أتبين لون عينيه ، غير أننى لم أجسر على الرجوع مرة أخرى . كان مشهد الأطفال المبتسرين مرعبا وجنونيا ، وهم يتحركون حركة يسيرة غير مؤكدة فى حضّاناتهم .

وسرعان ما كلّت ذراعى اليسرى ، وعدت لنقل الطفل مرة أخرى ، وقد حلّ الارهاق مختلطا بالهمود والضيق ، ثم فقدان القدرة على الاحتفاظ بخطواتى منتظمة . وبالرغم من لسعة البرودة التى كنت أخشى منها على الطفل ، الا أن العرق كان يبللنى ، وأنا أنعطف مع الحارة المقابلة ، وأتطلع الى الباب الحديدى الشاهق ، تحت نصف دائرة تتقاطع داخلها قضبان الحديد المضفور . دفعت الباب بكتفى ، وأنا ألتفتُ بسرعة للمرة الأخيرة ، قبل أن أدلف الى الداخل ، وأردُّ الباب خلفى ، متقدما فى العتمة ، وثَمَّة رائحة ثقيلة عطنة .

راح الضوء يتكشف كلما خطوت فى الردهة الدافئة ، حتى انتهيت الى الفناء المكشوف : فى ناحيته اليمنى كانت هناك حجرات أربع متجاورة ،

والثالثة من بينها بابها نصف مغلق ومضيئة . أما الناحية اليسرى فيشغلها الجدار الخلفى العالى لأحد البيوت . ورفعت عينى الى السماء التى بدت لى صافية بنجومها المرتعشة ، وأنا واقف أحمل طفلى ، وقد تملكنى النَصَبْ والإعياء ، حين كففت عن السير ، بل الركض ، للمرة الأولى منذ نزولى .

لم يكن ثمة صوت فى هدأة الليل . من خلفى الردهة الدافئة ، وقدّامى جدار آخر يتوسط صف الحجرات والجدار العالى . فكرت فى أن الأمر المُلِح الآن ، هو أن استريح قليلاً حتى ألتقط أنفاسى ، واسترجع التفاصيل السابقة قدر الطاقة ، قبل أن أقرر مايتعين علىَّ القيام به .

على أننى ضَمَمْتُ الطفل ، محاولا أن أخفف ثقله على ذراعى ، ثم خطوت تجاه الحجرة المضيئة ذات الباب نصف المغلق . كانت الحجرة باهرة الضوء ، وكان الرجل العجوز مختفيا نصفه السفلى داخل الطشت المعدنى الضيق ، وأمامه المرأة العالية ترتكز بركبتيها على السجادة البنية النظيفة ، وهى تمسك الكوز بيد ، وباليد اخرى تُدلِّك ظهره باللوفة . كانت تؤدى عملها باستغراق وتأن ، وثوبها الأسود مبتل على جسمها المشدود العالى . وحين رفعت عينى ، التقيتُ بعينى العجوز الصامتتين الصاحيتين داخل مرآة الدولاب الذى لاح فى عمق الحجرة . ثم توقفت هى كذلك ، بعد أن انتقلت بعينيها الواسعتين ، وبذلت أنا جهدا لأنتزع عينى من العجوز الذى إستدار بنصفه العلوى .

كان هذا الوضع الجانبى لجسمها المرتفع الضارب فى فضاء الحجرة ، وتلك المسافة الضيقة بين الحائط من خلفها والطست أمامها ، سوف يمنعها ، كما توهمتُ ، من الالتفات لى . لكن جسمها استدار ، ورأيت ثدييها الصغيرين عبر جلبابها الأسود الناعم المبلول ، ثم استدارة الخصر ، قبل أن يتدفق هذا الإمتلاء الخفيف الوثير حتى الركبتين المرتكزتين .

رائحة الصابون الخفيفة الممتزجة بالماء والبخار كانت تلف المكان ، ووجهى وجسمي الواقف بالسترة الصوفية السوداء ، حاملاً الطفل المستغرق على ذراعي ، كنت أشاهده فى المرآة أمامي . لكم أرغب الآن فى فرد ذراعي ، والتخلص من هذا الثقل الذى فقدت القدرة على احتماله بالفعل . بل أننى فكرت فى الفراش المتلألىء بنظافته وعواميده النحاسية الأربعة ، تلتف حولها الستارة الناصعة المزدانة من أعلاها بشرائط حمراء وزرقاء وبرتقالية رفيعة .

كان فراشاً عالياً تلوح بجواره نافذة صغيرة مرتفعة ، ثم الدولاب يسد الحائط المواجه ، وامامي مباشرة كان العجوز قاعداً فى طسته ، ينتظر أن ألتفت اليه . وعندما فعلت ذلك ، استدار وفارقنى ، معطيا لى ظهره العارى المحدوّدب الضّامر . وكان رأسه عارياً من الشعر الا فوديه اللذين إحتفظا ببقايا شعر فضى ناعم . مدَّ يده واختطف الفوطة الزرقاء المعلقة على شباك السرير النحاسي ، ومضى يجفف الصابون ببطء بالغ .

حين وقفت ، اكتشفتُ أن ثوبها قصير وجسمها عال وأن ساقيها الخمريتين تبرقان تحت ثوبها الأسود ، بالخلخال الصغير فى ساقها اليسرى . هاهى تخطو خطوات قصيرة ، وأنا يغادرنى كل اعيائى ، مُهيئاً للتخلص من ثقل ذراعي .

هاتان العينان تعرفاننى : كحلاوان تبسمان بَسْمَة مدهوشة فرحة . غير أننى ترددت قليلا ، عندما لاحظت أن وجهها الحقيقى يختفى تحت ألوان ثقيلة . وكانت ترتدى منديل رأس أبيض تغطى به شعرها الأسود النافر على جبهتها الواسعة ، مختلطا بحواف المنديل المطرزة بكل ألوان الطّيْف .

لمَّا مدَّت ذراعيها المبلولتين تقطران ماء ، لمحت ثدييها يرتعشان مرة أخرى ، ولامست ساعديها لما اقتربت أناولها الطفل . ضمَّته الى صدرها بيد ، وباليد الأخرى ؛ راحت تسوِّى اللفائف وتعدل من وضع البطانية وتلفّها جيدا

حول جسمه . وتبينت العقد البنفسجي يحيط بعنقها ، مكوناً من حبات كبيرة ترقد ساكنة تحت عنقها الخمرى العالى . فتحتْ فمها ، فلم أتمالك نفسى من الابتسام : أعرف هاتين الشفتين الحمراوين ، وهذا الثغر حين يَفْتُر عن ابتسامة واسعة حميمة ، فتبدو الأسنان العلوية بفرجتِها الضيقة ينْثال منها الضوء .

وما لبثتُ الا قليلا ، حتى داهمنى الخوف لأُننى فقدتُ حذرى ، وتخليتُ عن الطفل . وجدتنى أمدّ يدى هامسا :

« هات الطفل .. » .

ابتسمت بعيونها ورفعت حاجبيها هامسة :

« (معقولة) .. انه طفلة .. ألم تكن تعرف ؟ .. لماذا تأخرتما ؟ .. يبدو عليك التعبَ .. وأنا أيضا تعبت من انتظاركما .. » .

ها هو فمك لا يكف عن التلألؤ من جراء هذه الفرجة الضيقة الحلوة ، والتى تمنح وجهك بكامله طعما ومذاقا يجعلنى اتقبض على شفتى . غير أنى انتبهت فجأة الى طرف مفتاح الحياة المعلق على الحائط من خلفها ، لايبدو منه الا جزء يسير خلف جسمها الواقف العالى ، بينما الخلخال الصغير يلمع فى ساقها اليسرى .

رائحة البرتقال

خفّفتُ من سرعتى عندما وصلتُ الى أول السور . كانت الدنيا أمامى خالية وسيعة يلفّها الظلام . وكان البرد شديداً والرياح تحمل تراباً يملأ الحلق ويبعث على الاختناق . حملتُ الطفل ــ لا .. الطفلة .. نعم الطفلة ــ فى حضنى ، وجعلتُ وجهها فى صدرى ، وكفّى الأيسر يسند رأسها . ولما رفعتُ رأسى ، أصابنى الدوار وشككت فى أن هذا السور ؛ من ورائه تلك المدرسة التى قضيت فيها ردحا من الزمان . لو كانت هى حقاً ، لأمكننى أن أحدد أشياء كثيرة : على الأقل أن أسير مطمئنا ، مهتديا الى الخطوة التالية التى علىّ أن أحزم أمرى على اتخاذها .

أجل . هذا هو الباب الحديدى الواسع ، والمدخل تحف به الأشجار وقصارى الورد ، ثم الأدوار الثلاثة تنتصب فى العتمة . وقفت قليلا أنصت لهذا السكون الشامل ، وتلك السماء البعيدة العالية تبدو خالية . وفكرت فى أنه ليس من الفطنة ، على أى حال، أن أستسلم لوجودى فى هذا الخلاء ، واذا كان هناك من يتعقبنى ، فان المكان الذى رضيت بالاستسلام له ، هو مكان نموذجى للوصول لى .

لمحت ضوءاً بعيدا جعلته قبلتى ومرادى ، وحسمت الأمر : إن محاولتى للتوصل الى معرفة المدرسة ، لن تحول دون إبتعادى عن المكان بأكمله . وأخذتُ أتذكر الفصل الذى كنت أجلسُ فيه بجوار النافذة ، حين كان فى

إمكانى أن أشاهد البنات اللائى خرجن فى حصة الألعاب بـ (الشورتات) والفانلات الخفيفة ، يؤدين تمارينهن بأعضائهن الطليقة فى صفّين أمام المعلمة التى علقت صفّارتها على صدرها ، وأنا أدقق النظر حتى أتعرف عليها ، وقد لمّت شعرها وعقصته ذيل حصان يتدلّى .

مشيتُ ومشيتُ ، حتى انحرفتُ الى الجسر الخشبى الصغير المقام على ترعة ضيقة ممتلئة بالحشائش ورائحتها كريهة . عرجتُ الى اليمين ، ثم إتخذتُ طريقى الى أن واجهت الميدان تحيط به العمارات . وفى المدى ، بجوار الجامع البعيد ، ميّزت بصعوبة هذا الرجل الذى تسنّم حصانه ، واقفاً فوق نصب صغير . كان يرتدى عمامة على رأسه ، وأثوابه السابغة تتهدل ثنياتها الغليظة على سراويله ، متمنطقا بسيف ضخم ، وقد توجه بناظريه أمامه مشرفاً على الميدان .

عبرت الميدان ، ودخلت فى أول شارع صادفنى ، وسرنى أن تصافح عيناى أولَ ما تصافح عقوداً ملونة تغطى صدر المبنى النائى فى نهاية الشارع . احتضنتُ طفلتى بذراع واحدة ، والذراع الأخرى رحتُ أهزّها وأطوّح بها . رغبتُ فى أن أغنيَّ وحدى ، لكن الشارع كان ممتلئاً بالعربات ، وثَمْةَ ناس قليلون يتناثرون على الرصيفين ، بجوار الدكاكين المغلقة ..

تململَت الطفلة ، وخفتُ أن تستيقظ ، فأسرعتُ قليلا ، وعدتُ لحملها بذراعى الاثنتين ، وفكرتُ ثانيةً فى أننى ارتكبتُ خطأ لايمكن التخفيف من نتائجه . لقد نزلتُ وحدى دون أن انتظرها .. أليس كذلك ؟ . كما أننى لا أستطيع أن أنقلب عائداً الى نفس المكان . واذا استيقظتْ البنت جائعة ، وشرعتْ فى البكاء ، فلن أجد مخرجاً . لن تجدى كل المبررات التى سوف أسوقها أمامها وأعيدها وأكررها ، حول ملابسات مغادرتى للبيت ، وسوف ينتهى الأمر بعراك حاد وغَمْ يخيِّم علينا حتى نجد سبباً آخر لتجديده .

كنت قد اقتربت من العقود الملوَّنة ، وتبينت أنها سينما : ازينّت على صدرها بكل هذه الأنوار التى تعشى العين ، حيث يلمع وجه الرجل الأزرق بشعره ــ الكحلى تقريباً ــ الناعم الغزير ينسدل على جبهته فاتحاً فمه الأحمر الواسع ، قبل أن يهوى على شفتى المرأة المفتوحتين ، بينما نام وجهها الأحمر بين راحتيه ، وهو يلتهمها بعيونه الزائغة . ومن خلفهما بدا البحر والأشجار والشمس والنسوة العاريات . وفى الأسفل ، رأيتُ الرجلين يرتديان بدلاً كاكية ويصوِّبان بندقيتيهما نحو الجميع . وسرعان ما تبينتُ مادعانى الى التوقف طويلا . كان وجه المرأة مرسوماً وحده بين كفّيِ الرجل ، وكان ثمة خطأً فى المنظور جعل العلاقة بين رأس المرأة ووجه الرجل مختلّة تماما .

عبرت الى الناحية الأخرى ، وما لبثتُ أن خلفت السينما ورائى ، وتوقفتُ تحت مصباح الشارع أحدِّق فى وجه الطفلة . أحسستُ بها مبلولة بين يدى ، فابتسمت لها وقرَّبتُ وجهى منها . كانت مستغرقة وتقاطيعها الصغيرة حلوة وبشرتها خمرية رائقة . أما أذناها فمثقوبتان وثمّة خيط صغير معقود داخل كل ثقب .

وتذكرتُ أننى عرفتُ لِتَوىِّ أنها بنت ، وتذكرت أيضا أننى مررت على تلك المدرسة التى كان تعرفى عليها كفيلا بأن يجنبنى هذ الوقوف المحفوف بالمخاطر . وكيف أتذكرها اذا كانت كل المدارس متشابهة : أبنية تحيط بالفناء والعَلَمْ ، وأبنية أخرى بدون فناء وعَلَمها يختفى فى مكان ما . لكن المدرسة التى أقصدها كانت تطل على النهر وتمتد أمامها حقول مبللة بالمطر . وأنت حين تحولتَ عن الحقول ، واستدرتَ الى فناء المدرسة المجاورة ، متوقعاً أن المعلمة لابدُ قد وافقتْ على خروجهن أخيرا بعد أن توقف المطر .. ها أنت تراها أخيرا وسط البنات بسراولها وسترتها الكحليين ، وشعرها البنى معقوصا خلف ظهرها . سوف يحمر وجهها الرائق لما تراك ، ويرتعش شىء ما داخلها تحسّ أنت به .

وثمة مدرسة أخرى تطل على النهر أيضا ، نعم ، تلك التى عملتَ فيها بعد تسريحك من الجيش وقبل القبض عليك فى أعقاب مظاهرات المطالبين بخبزهم . أى المدرستين إذن ؟ ..

كيف توقفت كل هذا الوقت فى الشارع ، دون أن أنتبه للضجيج الذى سبّبته صفوف السيارات القلقة أمام اشارة المرور ؟ . واصلت سيرى متلفّتاً حولى الى العمارات الزجاجية العالية ، وقد مالت الى الشارع تسحقه . وقلت ، مادمت لا أعرف اسما لهذا الشارع ، فلأسمه شارع العمارات الزجاجية ، أو شارع العمارات الزجاجية العالية ، أو ... المهم أن اتدبر أمرى وأرقب ما أصطدم به من شوارع وأحاول التمييز بينها .

عبرت اشارة المرور ، وانعطفت مع الشارع القادم . غير اننى تنبهت سريعا للرجل الذى يسير على الرصيف الآخر ، بعد أن لمحته يتابعنى بطرف عينى . حثثت السير ، فأسرع على الناحية المقابلة . عبرت شارعا ثم شارعاً ، حتى غاب فى اللحظة التى واجهت فيها السلّم المضىء فجأة ، فاندفعت أقفز السلالم ، وأُقطع الممرات والدهاليز المضيئة على أطراف أصابع قدمى ، الى أن انتهيت الى فناء واسع نظيف مسقوف . كانت الأضواء تحيل الدنيا نهارا باهتا ، غير أن الأرض والجدران والمبانى الزجاجية القصيرة بانت بالغة النظافة والبهاء . تمشيتُ قليلا ووجدتُ نساء ورجالا يملأون المكان ، وبعضهم يتقدم من مبنى زجاجى للحصول على التذاكر التى يزهون بها وهم يتبادلون النظرات صامتين . قلت لنفسى : لقد تعرفتُ عليه أخيرا . هذا مترو الأنفاق الذى لهجت الألسنة بذكره ، وعملتْ له الأمة احتفالا مهيبا عند افتتاحه ، شاركتنا فيه حكومات الدنيا . وبالرغم من إعتقادى اننى لم أزره من قبل ، إلا أننى أقطع بأن هذا هو مترو الانفاق الذى شاهدته يملأ صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون .

إلا أن ما حدث منذ قليل لابد أن يدفعني للحرص ، ومادمت داخل النفق ، فلأجرب ركوب القطار ، ومن المؤكد أنه سوف يبعدنى عمن يلاحقوننى .

كان رصيف القطار نظيفا أيضا ، وكان ثمة صناديق زجاجية بجوار الحائط الرخامى . يضم الأول تمثالا أسود لقط ضخم يقعى على قدميه الخلفيتين وينظر بشراسة ، حتى اننى ضممت البنت ، منتقلا الى الصندوق التالى الذى انتصب بداخله فرعون صغير له تاج ضخم ، وبجانبه امرأة قصيرة ذات خصر نحيل ونهدين نافرين ، ترتدى تاجها وتقف ملتصقة بالفرعون . وتحتهما اصطف عشرات الجنود الصغار الحاملين أقواسهم ودروعهم ، لكنهم كانوا صغاراً للغاية ، يشبهون لعب الأطفال .

وتناهى لى ضجيج المترو من بعيد ، وتقدمت مع الناس عازما على ألا أفلت الفرصة ، وقفزت داخل العربة بمجرد توقفها . كان المترو مزدحما ، لكنه هادىء وصامت ، والآخرون الذين صعدت معهم كانوا صامتين أيضا . اندفع المترو والاجساد المتصلبة تحيط بى . مضيت أحاول أن أجد وضعا أتمكن فيه من الاحتفاظ بالطفلة دون أن أعرضها للأكواع والقبضات والسواعد والأجسام التى تضغط من كل اتجاه . رفعت رأسى لأبحث عن مكان أقبض عليه بيدى الخالية ، فشدَّتْنى بغتة عيونها الواسعة ، وشفتها جالسة فى المقعد القريب تلوّح لى بيديها .

إبتسمت لها ، وفارقنى إعيائى ونَصَبى ، ووجدتنى قادرا على التقدم نحوها . أدفع بجسمى واقترب ، بينما البنت قد فتحت عينيها ومضت تجول بهما حولها ، قبل أن تشرع فى البكاء . وكانت هى قاعدة على الكرسى القريب من النافذة الزجاجية المقفولة ، وأمامها مقعدان وحولها الناس ، ترتدى سروالا أزرق وقميصا أبيض فوقه « جاكت » كحلى . وكانت جبهتها عريضة ، بعد

أن لمَّت شعرها فى ضفيرة غليظة استقرت على صدرها . وتهللت لأن وجهها كان رائقاً خمرياً لا يحمل ألواناً ، إلا هذا الكحل الثقيل حول عينيها الواسعتين النافذتين . قلت ، ها أنا قد عرفتك بالرغم من الزى المدرسى الذى تتنكرين فيه ، غير أنك جميلة تتلألئين وأنت ترفعين يديك ، تتناولين منى البنت . وحين ضممتها الى صدرك ، نظرتِ لى بلوم وتأنيب ، لما تحسستِ لفائفها .

التقطت حقيبتها المدرسية المعلقة على كتفها ، وأخرجت منها بطانية نظيفة ، مربعاتها الحمراء صغيرة والبيضاء كبيرة ، وكذلك الغيارات البيضاء النظيفة . ثم عدلت البنت على حجرها ، وبأصابع مدربة حميمة سريعة ، مضت تغيِّر لها ، مائلة عليها ، وحريصة على ألا تظهر عرى البنت أمام الناس . وما لبثتُ أن رفعت لى عيونها بعد أن انتهت ، فرغبت فى أن أقبلها على عينيها الاثنتين الباسمتين .

كانت البنت صاحية مستكينة على ذراعيها ، تتبادل معها الابتسام وترفع كفيها الصغيرتين تقبضان على الضفيرة .

والمترو يمضى ، وأنا قد وجدت لى مكاناً وذراعاى خاليتان . أرتكز على قدمى اليمنى قليلاً ، ثم أنتقل لليسرى ، وأشاهد الظلام عبر النافذة الزجاجية .

وعندما تبينت عينيها اللتين انتقلتا بسرعة ، استدرتُ بوجهى الى حيث اتجهتْ ، فأمكننى أن ألمح الوجه الأسمر المحروق والشارب الكث ، وقد بدا الخدّان متمترسين يصنعان هضبتين تميلان على العينين والأنف الأفطس .

اقتربت منها حين أومأت ، وانحنيت لأسمعها تهمس :

« ننزل فى مار جرجس .. لا تتحرك قبل أن يفتح المترو أبوابه فعلا .. » .

فهمت ما تقصده ، وفارقتنى رائحة البرتقال ، بينما أتابع الرجل وهو

يجهد فى التقدم نحونا ، والناس كأنهم يتكأكؤون عليه ، وقد استداروا بأجسامهم ـــ إستداروا بالفعل ـــ الى الناحية التى يتقدم منها ، فيما كان يدفع يديه ورأسه صامتا هادئا .

انتظرتْ حتى توقف المترو ، فطارت الى الباب وأنا خلفها ، ثم هبطنا قبل أن يغلق الباب خلفنا بسرعة .

نزلنا السلالم راكضين ، وهى تحمل الطفلة قدّامى والحقيبة المدرسية تتدلّى من كتفها . دُرْنَا خلف المحطة وتوقفنا لاهثينْ . وحين تبين لى أن أحداً لم يهبط وراءنا ، وضعتُ يدى على كتفها وضممتها لى ، واتجهنا لنعبر الطريق ، حيث كانت أمامنا الكنيسة الشاهقة ببوابتها المقفلة العالية ، وقد بانت قبتها الضخمة مضاءة بمصابيح مختفية فى مكان ما .

وسَرّحت البصر ، وجسمها أحسه حاراً على صدرى ، وشعرها له رائحة البرتقال الحريفة تتضوع وتجعلنى أشعر بالدوار العذب . كان ثمة درجات رخامية عريضة تصعد نحو بوابة الكنيسة . والى اليمين كان السور الذى يحيط بمجموعة الكنائس المختفية فى الظلام ، والذى ينتهى بأطلال حصن بابليون القليلة المتهدمة : البرج المستدير الطالع فى ضوء الكشافات المختفية . السور والبئر والحوائط الحجرية . كلها بَدَتْ صاحية وظلالها تتقاطع وتمتد عبر الشارع . وأنصتُ هنيهة ، لأننى كنت أسمع حفيفاً قوياً لأشجار لم أستطع رؤيتها .

تمشينا قليلا ، وسمعت صوت أقدامنا تدق الأرض ، وتَرِنُّ فى الفضاء الخالى . كانت تحمل البنت على ذراعها بطريقة مريحة لها وللطفلة معا . طريقة لا يمكن وصفها . تعتمد على حساسية ودَرْبة خاصة : متزنة مستقيمة مالكة لأمرها . والى جوارنا ، كان ثمة لافتة رخامية معلقة على بوابة أخرى بالقرب من نهاية السور ، الذى أصبح على يسارنا الآن . كان مكتوب عليها : مدافن

الكاثوليك الملكيين . وقلت لنفسي : لابد أن صوت حفيف الأشجار يأتى من خلف هذا السور .

كنا قد اقتربنا من حصن بابليون . نعم . أنا أعرف اسمه ، بل وأعرف أن هذه المنطقة بكاملها اسمها مار جرجس . ثم أن هناك عددا من الكنائس تتتالى من خلف المدافن : الكنيسة المعلقة بنخيلها السامق فى الفضاء الخالى والذى أفطرتْ على تَمْره مريم العذراء ، ثم كنيسة أبى سرجة حيث استراحت العائلة المقدسة فى ناووسها حين أتت الى مصر ، وكنيسة الست بربارة صاحبة الكرامات .. كانت المنطقة الواقعة خلف السور يلفها الظلام والليل ، غير أننى كنت قد جئتها فى النهار من قبل ، ومشيتُ فى شارع ضيق ، تطل أبواب الكنائس والأديرة على جانبيه ، وعبرها ، رأيتُ صور العشاء الأخير تغطى الجدران بكاملها ، وصور القديسين ، والعذراء ، والمسيح طفلاً على ذراع أمه وشاباً يرفع يده .. لقد كنت محيطاً بالمكان فى ذاته ، أى أننى أعرف هذا المكان دون علاقته ببقية الأماكن . أظن أننى اقتربت من فهم الأمر على نحو أيسر . على أى حال ، أغلب الظن أننى قريب من حلوان أو المعادى على سبيل المثال . وفى هذه الحالة ، فإنه من المتعيّن علىَّ أن أجهد ذهنى قليلاً للوصول الى تحديد أكثر .

على أنه ليس من الحذر فى شىء ، ان نتوقف ثلاثتنا هكذا فى مثل هذا المكان الخالى ، ولايحتاج الأمر الى ذكاء كبير ، لإدراك أن مَنْ فى أعقابنا بمقدورهم أن يهبطوا فى المحطة التالية ، ثم نراهم فجأة أمامنا .

احتضنتُها وقفلنا عائدين بجوار السور ، الى أن وصلنا الى الكنيسة الشاهقة مرة ثانية . رأيت البنت تتململ على ذراعها وتحرّك رأسها . رفعت لى عينيها الواسعتين اللامعتين فى الضوء الخفيف ، ورغبت فى أن أقبل شفتيها الداكنتين المتهيئتين ، حين فتحتْ فمها لينْثال الضوء من الفرجة الضيقة للسنتين

العلويتين الأماميتين . أشرتُ لها نحو الكنيسة البعيدة قائلا :

« كنيسة (أبو سرجة) .. » .

كنت أريد أن أخبرها عما أعرفه عن الكنيسة التى رأيتها من قبل ، وبدأت أستعيد تفاصيلها مرة أخرى ، لكننى فوجئت بصوتها الحيى وعيونها تهرب منى وهى تهمس :

« البنت جائعة .. » .

استدارتْ ، وارتقتْ درجتين من السلم ، ثم جلستْ والبنت فى حجرها . أومأتْ لى وهى تفتح أزرار قميصها الأبيض . ولحظة اقتربتُ منها ، انتبهتُ الى صوت الأقدام البعيدة . نظر كل منا للآخر ، وانطلقنا بجوار السور ، وأناأكاد أطير من خلفها ، حتى انحرفنا الى شارع آخر . كان ثمة أشجار وأشجار تدور مع سور الكنيسة . رحنا نجرى والأصوات من خلفنا تقترب على مهل . وانفتح أمامنا شارع آخر ، دخلناه ، وانحرفنا الى زنقة ضيقة أفضت بنا الى سكة أخرى دون أن تنقطع الأصوات . داهمنى ضيق مفاجىء ، وكرهت أن أقضى وقتى راكضا : تسلمنى الشوارع للشوارع ، والحوارى للسكك الضيقة ، دون أن أتمكن من الركون للهدوء فى الحجرة التى تركتها ورائى ، وفى الفراش الذى أقدر على الاستلقاء عليه لا أفكر فى أى شىء . ولما بدأتُ أفقد قواى سمعتها تقول :

« خذ البنت .. وسأجرى أنا من هذه الناحية .. » .

لم أتمكن من الاجابة ، فلقد تلقفتُ الطفلة على ذراعى وانطلقتُ بأقصى قوتى .

دقات

خرجت أخيرا الى طريق خال وواسع . كان الفضاء قدامى وورائى وحولى وفى كل مكان . كنت أسير مرهقا مكدودا ، أشاهد دوائر الدخان تتصاعد على يسارى ، وتومض حرائقها الصغيرة المنتشرة فى تلال القمامة المتناثرة فى البعيد . كانت البنت قد توقفت عن البكاء منذ أن كففت عن الجرى ، الذى كان فيما يبدو يسبب لها ألما لا تقوى على احتماله . وعندما هدأتُ ، هدأت هى كذلك . غير أن جسمها كان يخرج من البطانية ، وملابسها التى كانت مرتبة وملفوفة جيدا ، لا أدرى ماجرى لها .

بعد قليل ، سمعت صوت العربة والجواد : العربة تقرقع بعجلاتها الخشبية ، أما صوت دقات أقدام الجواد ، فيدق دقات سريعة خفيفة متتابعة . أجفلت قائلا : ليس من المعقول أن يكونوا هم ، وكيف يتأتى لهم أن يطاردونى بعربة تجرها الجياد ، بعد أن فارقتها ، بضفيرتها الغليظة حتى الخصر ، ورائحة البرتقال العذبة تروح وتجيء فى دفقات . ها أنا وحدى اذن ، ومعى البنت الصغيرة .

وخطوت مسرعا نحو شجرة جرداء على اليسار ، واختبأت خلفها قدر ما أستطيع ، بينما كنت أتابع العربة وهى تظهر على مهل فى الطريق . تبينت الجواد يخب صاعدا ، ثم هيئة الولد الصغير القاعد على الحافة وحده والعربة تهتز نحوى .

غادرت مكمنى ، وجريت معترضا طريقه متهللا فرحا لخلاصى الوشيك . كان ولدا صغيرا أسمر ، وكان يضحك ضحكة واسعة جذلى ، ويغطى رأسه بطاقية بيضاء . ساقه اليمنى كانت مثنية تحته ، بينما تدلت اليسرى من طرف العربة الخشبية الصغيرة التى بلا أسوار . شد اللجام بقوة ، فتوقف الجواد البنى متمهلا يهز رقبته الطويلة اللامعة فى غضب . رفع لى وجهه الضاحك ، فقفزتُ بجواره ، وأرخى اللجام لينطلق جواده مجتاحا الريح والخلاء .

لقد أدركت من بعيد أنه هو . وهاجمنى فرح طاغ حين استطعت أن أهتدى اليه . أنه هو بلا شك إمام المساجد ومطلع الأنوار اللوامع . الجامع العتيق . هذا هو الصحن يبدو غائما ، ومن خلفه غابة من أشباح الأرْوِقَة الخالية الممتدة فى الليل . نعم .. هو جامع عمرو بن العاص . استراحت نفسى وغمرنى هدوء عجيب . ولم ألبث الا قليلا ، حتى وجدتنى أهتف : ما الفائدة فى تعرّفى على هذا المكان أو ذاك ، مادمت لا أستطيع أن أحدّد بالضبط ، أو على أى نحو ، علاقته ببقية الأماكن . يبدو أنه ها هنا تكمن المشكلة .

ثم عاودنى إحساسى القديم بالذنب لأننى أسرعت بمغادرة الحجرة فى مبدأ الأمر ، إلا أننى عدلت من وضع البنت على حجرى ، وأخذت أحاول إعادة ترتيب ملابسها ثم بطانيتها ، ونحن نهتز بعنف فوق العربة التى أشرفت على ميدان واسع مضىء وممتلىء بالناس والبيوت تحتها الدكاكين .

ومع ذلك ، ليست هذه هى المشكلة فى الوقت الحالى ، المهم الآن أن أتشبث بالعربة ، وأرقب الطريق هذه المرة بحذر ، حتى أغادرها بمجرد أن أتجاوز النقطة الفاصلة بين تعرّفى على المكان وبين تأكدى من علاقة هذا المكان بالأماكن الأخرى .

شوارع وشوارع قطعتها العربة ، كلها مضيئة ومزدحمة ، حتى انتهينا الى

ميدان آخر يطل على أطلال السور القديم العالى . وتوقفنا لنلتقط امرأتين أشارتا وهما واقفتان على الناصية . كانت الأولى ترتدى ملاية لَفّ والثانية جلباباً أسود طويلا ، وطلعتا كلتاهما ومرتا بجوارى ، وأنا قاعد بالقرب من الطرف المواجه للطرف الذى يجلس عليه الولد .

عاودنا سيرنا ، عابرين الشارع الذى يصل حتى أطلال السور القديم . كان ثمة فتحة تخترق السور ، وتشكل امتدادا للشارع . وعلى اليمين واليسار ، كان السور يمتد هناك فى الظلام عاليا بأحجاره الصفراء الكالحة . وقلت لنفسي ، هانحن قد غادرنا مدينة كاملة ، مادام هذا السور قائما ، وربما نكون دخلنا مدينة أخرى . وفى كل الأحوال يجب أن يكون لهذا السور معنى ما .

وبغتة لطمنى دوار ثقيل جعلنى أغمض عينى بسرعة ، غير أننى خفت أن أفقد قدرتى على حماية الطفلة ، ونحن نجلس على حافة العربة ، ففتحت عينى ثانية . كانت الرائحة تندفع ملتاثة لدم ولحم وعجيج وطنين ولغط وصبية ورجال يتمنطقون بأحزمة جلدية تبرز منها أطراف السكاكين والمُدَى ، وينتعلون أحذية طويلة تصل بالقرب من الركبتين .

البعض يقود متمهلا قطعانا من الجمال تَخُبُّ مهتزة بأسنامها ، والبعض الآخر يقود قطعاناً من الغنم ، والقوم جميعهم منشغلون بسلخ وتشفية الأجساد المعلقة أمامهم فى الضوء الباهر . كان الذبح والسلخ والتقطيع والدم قائما على قدم وساق ، والناس منصرفون بكليتهم يعملون جاهدين نشطين ، ويبدون على قدر من الحماس والحرارة .

وما أن تجاوزناهم حتى تنفستُ الصعداء ، وتراجعتُ قليلا بظهرى أشم الهواء فى الشوارع الخالية ونحن نعبر مزلقانا للقطارات ، لتستوى العربة ويستقيم سيرها متخلصة من الاهتزازات والمطبّات المفاجئة . أجل . لقد تذكرتُ الآن فقط ، ذلك البيت القديم الذى رأيتها فيه للمرة الأولى ، عند عمها فى شارع

الخليج ، تجلس نائية عن الناس فى الحفل الذى يغنى فيه الشيخ الضرير المنحنى بحميمية على عودة بصوته الشجى المبحوح ، والحاضرون يشاركونه متحمسين ، ينشزّون ويضوضئون وتتعالى أصواتهم دون مبرر ، بينما هى متلألئة وحدها بوجهها الطفلى ورموشها الثقيلة وكتفيها الخمريتين تلمعان بضوء مكتوم . هذا مكان بوسعى أن أبدأ منه على أى حال . شارع الخليج أعرفه . والبيت المميز بشرفاته العالية ونوافذه التى ينعكس عليها لون السماء . وحتى أتجنب أى سبب للعراك بيننا ، فلن أقول لعمّها على ماحدث ، وسوف أحاول الابتسام فى وجهه وكأننى أمر عليهم مرورا عادياً ، حاملاً طفلتى ، وأسأله إن كانت عنده.فليخبرها أننى هنا . وهل كنتُ أمر عليهم مرورا عاديا من قبل ؟ . يخيّل لى أن هذا أمر ممكن وطبيعى .

ومادمت قد رأيتها للمرة الأولى فى شارع الخليج ، هذا الذى أستطيع التعرف عليه ، فيمكننى أن أمر عليها هناك مهما كانت النتائج .

هل تريد أن تراها مرة أخرى أم لا ؟ . هذا هو السؤال الذى عليك مواجهته مباشرة ، بعد أن تجنبته طوال شهور وسنوات ، وتركت كل هذا العمر يطويك دون أن تواجهه ، واذا واجهته فانك تتركه دون اجابة حاسمة ، مثل كل الأمور المعلقة ، والتى افتقدت اليقين القديم فى مواجهتها . وكيف حدث ما حدث ؟ . وأنت وهى حينما التقيتما ، غرقتما تماما ، وكأن كلا منكما كان يبحث عن الآخر ، ولم تفارقها ولم تفارقك حتى تزوجتما بعد شهور قلائل . أسلمت لها نفسك ، وأسلمتْ لك نفسها ، وتعجب كل منكما من لقائه بالآخر ، ذلك الذى كنتما تتذكرانه كل يوم . يرويه أحدكما ، فيضيف الآخر اليه تفاصيل جديدة ، حتى أضحى شيئا ممتعا مبهجا يغتنى دوما بكل ما يعنّ لكما ،

مثل عرس عملتماه معا ، ثم تخفيتما بين الناس تتفرجان عليه . أحببت شعرها الأثيث ورموشها الثقيلة وتقاطيع وجهها المستقيمة القوية . وقلت لها أنها ما حلمت به ، وقالت لك أنها اطمأنت للمرة الأولى وانها أصبحت لا تجد معنى لنومها ، وفقدت تماما كل رغبة فى الغياب عن الدنيا بالنوم . وكنت تقول لها إن كل ذلك لايمكن أن يكون حقيقيا ، وإنك لاتستطيع أن تصدق مايجرى ، وإن عليكما أن تلتقطا أنفاسكما وتتعرفا على الدنيا من خولكما وما اذا كانت حقيقة أم لا .

فى حارة مسقوفة تمهلت العربة ، وعلى الجانبين كان الصنايعية قاعدين أمام أبواب الدكاكين يصنعون من قماش الخيام أعلاماً ورايات وصوراً فرعونية وزخارف موشاة بالقصب الملون ، تحت أضواء المصابيح المعلقة بجوار اللافتات الباهتة .

والتفت الى المرأتين من خلفى ، فوجدتهما وقد مالت كل منهما برأسها ، واستغرقتا فى حديث شاركت فيه الأيدى والنصف العلوى من الجسم . غير أننى كنت مع ذلك حذرا ، أرقب الطريق بانتباه ، بعد أن نجحت فى لملمة ملابس البنت ولفائفها ، وتمكنت من وضعها على حجرى بطريقة مريحة ، حتى أنها استسلمت للنوم ، متخلية عن تلك العبسة الخفيفة التى كانت معقودة على جبهتها .

حين شاهدت البوابة الضخمة المفتوحة ، عرفت أننا وصلنا الى باب زويلة . إسترحت وداخلتنى الثقة والطمأنينة ، بعد أن توقف الولد بعربته بجوار سور جامع الصالح طلائع . وفى الفناء الحجرى قدّام الجامع ، وعبر السور ، كان ثمة كشك خشبى صغير مدهون باللون الأسود ، وأمامه لافتة معلقة بين عمودين مكتوب عليها ، الحزب الوطنى الديمقراطى .

وومض فى ذهنى سريعاً أن باب زويلة هذا يفضى الى الغورية . أليس كذلك ؟ . ومن هناك يمكننى أن أكتشف الطريق الى شارع الخليج . ومادمت قد تبينت باب زويلة وجامع الصالح طلائع وسور جامع المؤيد القريب ، فلا شك ان اكتشاف الطريق الى شارع الخليج بالقرب من سجن الاستئناف ، نعم ، ومديرية الأمن ومحكمة مصر ، كلها أمور سهلة وقريبة المنال .

المرأتان جاوزتانى ، وقفزتا الى الشارع ، ثم توقفتا أمامى تتحدثان . راحت الأولى تعدّل ملايتها ، فبَان قميص نومها الأخضر الداكن قصيرا ، وجسمها النحيل الملفوف ، أما الثانية ، فقد استقامت بجسمها الثقيل الراسخ ، وأرسلت لى نظرة طويلة قبل أن تفاجئنى قائلة :

« أسند العيّل بيدك .. ضع يدك تحت ظهره .. » .

ثم استدارتا ، وعبرتا الميدان الصغير نحو باب زويلة . كانت المرأة الصغيرة تعرج عرجا خفيفا ، وهى تستند على المرأة الأخرى . بحثت فى جيوبى متطلعا الى الولد الصغير بوجهه الأسمر الباسم . جيوب السترة والسروال والقميص ، رحت أجوس فيها فأجد أوراقاً وعلبة سجائر وكبريتاً ومنديلا .. لكن الولد هَزّ اللجام بين يديه وانطلق بالعربة ، وهو يلوّح مبتعداً .

صوت كل الطيور

عبرت باب زويلة وهاجتْ رياح الغورية . مسك وعنبر وكافور وصندل وزعفران وقرنفل وحبّهان . توابل ، وسكر نبات . رائحة فاغمة ثقيلة تأخذنى على مهل ، والدكاكين المضيئة حولها الناس يشترون ويبيعون ، والشارع المبلّط بالأحجار الصفراء المتراصة يبدو نظيفاً ، وأنا أمشى ومن حولى الخلق يحملون حوائجهم ويمضون ، ثم لمحت المرأتين اللتين كانتا معى فى العربة تسيران بعيدتين .

فرحت لأن هذا الشارع بالذات ، هو الشارع الذى يقع فيه دكان عم « آدم البروجى » . اللافتة بالخشب البارز : أحذية الأندلس ، ثم اسمه فى الأسفل بخط كوفى جميل . ضاعت منى الحجرة ، والمدرسة ، ومار جرجس ، وها أنا ذا فى الغورية التى أعرفها جيدا . بعد حارة الروم بأمتار قليلة ، سوف أنعطف مع الشارع ، لأجد الدكان الى يمينى . وعم آدم قريب لنا من بعيد ، من اولئك القليلين الذين لم أكن أراهم إلا فى المقابر صباح يوم العيد . لكن عم آدم بالذات ، كنت أراه منذ صغرى يوم الوقفة مع عمى ، حين يصطحبنى لنشترى حذاء العيد . وفى اليوم التالى ، ألقى عم آدم فى القرافة ، يضحك لى بعينه الحولاء ووجهه الأسمر السمين . جسمه الضخم تلفه بدلة كاملة دوما ، وتبدو الكرافتة ذات اللون الزاهى كأنها سوف تخنقه ، وهو يحرك رقبته السمينة بعيداً عن ياقة القميص المقفول .

فى تلك السنة ، قابلته وأنا هارب أبحث عن مكان . استوقفنى فى الدرب الأحمر ، وأخذ يقهقه لأننى لم أتعرف عليه على الفور . سألنى عن عمّاتى وأزواجهن وأعمامى وزوجاتهم وأولادهم وأمى ، وأخبرنى عن أحداث وأحداث قبل أن يصيح غاضباً :

« حتى القرافة .. لم يعد أحد يطلع على الميتين .. ويظهر أنهم يذهبون بمن يموت الى ترب أخرى .. » .

أصرّ على أن نروح معاً الى بيته . وفى الطريق سألنى فأجبته أننى هارب من البوليس ، فهتف :

« السياسة مرة ثانية .. كفاك ياابني .. كفاك .. دع المُلْكَ للمالك ينظَمُه وحده » .

فى بيته تعرفت على امرأته البيضاء . أخذتنى فى حضنها ، بالرغم من أنها لم تكن تفعل ذلك وأنا صغير . ذَبُلَتْ قليلا ، لكنها كانت ماتزال محتفظة بجسمها القصير الممتلىء . أما ابنته الناحلة البيضاء « مريم » ، فكانت مطلّقة ولم أسمع لها صوتاً طوال شهور خمسة قضيتها معهم . تتحرك فى الشقة بقميص نومها الكستور ذى الكمين : نحيلة صامتة لا تتلفت ولا يصدر عن سَيْرها أدنى صوت . قضيتُ الوقت فى الحجرة البعيدة فى آخر الشقة ، أرقبُ البيوت من حولى ، وأتتبع الوجوه والأجسام تلوح عبر النوافذ . عشقتُ تلك الحجرات عالية السقوف فى بيوت قديمة درجاتها عالية وأبوابها وحجراتها واسعة ونوافذها شاهقة ، ولها مناور تأتى منها رياح متجددة باردة .

أحببتُ وجوها كثيرة لنسوة صغيرات كنت أشاهدهن يمارسن أمور معيشتهن دون أن يعلمن أننى أرقبهن ، حتى أدركنى السأم ، وحاولتُ أن أخرج وأنزل الشارع ، لكن عم آدم كان يرفض ويطالبنى بأن أظل مختفياً حتى

تهدأ الأمور . وفى الليلة التى سبقت مغادرتى لهم ، جلستُ معهم لنتناول العشاء . ورأيتنى ومريم نطيل النظر الى بعضنا للمرة الأولى . فى عينيها خوف واسترابة ومايشبه الغرق ، غير أنها لم تكن تهرب منى مع ذلك . تستقر عيونها القلقة رويداً فى عينى ، دون أن تفارق خوفها . وعندما جاءت فى آخر الليل ، كنتُ قد تركتُ باب حجرتى مواربا ، غير أن النوم غلبنى ، وتنبهتُ الى حركة جسمها العنيفة تحت الغطاء . نهداها حرَّان وجسمها بالغ النحول لكن حركتها السريعة كانت تفاجئنى ، وصوتها يشبه صوت كل الطيور : رفيع وحار وجارح ورقيق يترقرق من داخلها ثم ينتقل من شفتيها وأطرافها ومسامها . فى الفجر ارتدت ملابسها ومضت واختفت حين غلبتها دموعها وأنا أودعهم على باب الشقة . لحظتها داخلنى نوع غائر من الإثم الذى لم أبرأ منه بالرغم من كل ما مر لى .

تلفَّتُ حولى ، وأنا أدورُ مع شارع المعز ، وقلتُ اننى تجاوزتُ دكان عم آدم أغلب الظن . وفى هذه الحالة هل أتراجع باحثاً عنه ، أم أن علىَّ أن أرعىَ البنت مدركا أن استيقاظها بات وشيكا ، بعد أن مضى كل هذا الوقت وهى على ذراعى جائعة ؟ . لا شك أن استسلامها للنوم ليس إلا بسبب إعيائها وعدم قدرتها على مقاومة الجوع . واذا كانت قد غيَّرت ملابسها المتسخة ، وارتدتْ ملابس نظيفة وبطانية نظيفة ، فان ذلك لا يمكن أن يغنيها عن الرضاعة . وعلى أى حال ، فأنا قد عقدتُ العزم هذه المرة على ألا أفلت الغورية ، تلك التى أعرفها وأحب بيوتها القصيرة القديمة ذات السقوف العالية والأسِرَّة المرتفعة . أعرف الغورية اذن ، وتدور رأسى هكذا كلما مررتُ بالقرب من دكاكين العطارة القريبة ، ولن يهمنى شيء .

على ناصية الحارة المقبلة ، كان الصوت النسوى يتضح بصعوبة . رحتُ اقتربُ وطفلتى فى حضنى . أطللتُ على الحارة ، حيث كُنَّ جالسات محلولات الشعور مشقوقات الصدور بأثوابهن السوداء السابغة ، يعددن ويصرخن

ويلوحن وهن قاعدات يتمايلن باكيات . وقفتُ بجوار الناس الذين تجمعوا على الناصية . وسرعان ما أحاط بى ناس كثيرون ، يمدون أعناقهم يتفرجون ، بينما النسوة يغطين أرض الحارة الضيقة ، ويتناثرون هنا وهناك حتى الجدار المواجه ، فيصنعن من أجسامهن جزيرة سوداء تسد الحارة . كانت صدورهن مشقوقة وأثداء النسوة والفتيات والبنات الصغيرات تبدو وهى تتأرجح وتطل وتختفى وهن يعددن خلف الصوت المبحوح الجارح :

مين يخدم السِّتّات
يِلفّ الشّعور ويحضّر البدلات
مين يخدم الغَنَادير
يلف الشعور ويحضر التَنَانِير
مين يخدم البَيضة
يلف الشعور ويحضر المُوضة
سِكِنَّا اللحُود ولا عاَدْلِنَاش عُوزه

صمتت المرأة برهة قصيرة ، وأخذت انا اتلفت باحثا عنها ، لكن الصوت ما لبث ان اندلع ثانية :

وألفِّلِك شعرك
وارخِى الضفيرة ورَا ضهْرك
عينى تقول يابخت مِنْ نَضَرِكْ
والعين بكاّيه على عدمك
وألفلك رَاسِكْ
وارخى الضفيرة ورا اكْتافَكِ
عينى تقول يا بخت من شافك
والعين بكايه على غيابك

وحين توقفت هذه المرة ، اكتشفت مكانها على الفور ، غير أن وجهها كان بعيدا فى الناحية الأخرى . وسرعان ما عادت للصياح بهلع مبحوح :

وأحطّلِكْ دبوس
وارخى الضفيرة على حرير منقوش
رُحْتِ بشوق الفرح ما شفتيش
وألفلك عنْدِى
وارخى الضفيرة على حرير وَردْى
رحت بشوق الفرح ما شُفْتِى
وألفلك ببيتى
وارخى الضفيرة على حرير زيتى
رحت بشوق الفرح ما ريِتِى

حين كفت المرأةُ عن عديدها الطويل ، إندلع الصراخ والنشيج والنحيب ، وانطلقت النسوة كأنهن يتقافزن بنصفهن العلوى ويلوحن متمايلات . وبالرغم من ذلك فلقد أحسست بهم ورائى يتحينون الفرصة ، يتقدمون ليحكموا حصارهم خلسة ، بعد أن أمكننى التعرف على صاحب الخدّين الشبيهين بالهضبتين . ليس أمامى إذن إلا هاتيك النسوة يملأن الحارة ، وهم من خلفى أكاد أشم رائحتهم . لم يكن فى وسعى الإ الركض ، فى نفس اللحظة التى لمحتها فيها تشير لى فى نهاية الصفوف ، بالقرب من الجدار المواجه الذى يسد مدخل الحارة . ولشد ما أدهشنى أن النسوة سرعان ما أفسحن مكانا لى ، وأنا أنطلق بأقصى قوتى نحوها ، بينما الصفوف تعود للالتئام من خلفى مرة أخرى .

تلقفتْ الطفلة من يدى ، وطارتْ بثوبها الأسود السابغ وشعرها المحلول ، وأنا خلفها فى زقاق صغير كأن الحارة انشقتْ عنه .

حمام للبنت

عدلت نفسها أمام الطستين البلاستيكيين : الأحمر الكبير والأزرق الأصغر قليلا ، وأراحت البنت على فخذيها وهى تجلس القرفصاء ، ثم انحنتْ تنضو عنها ملابسها ، بينما دفعتْ البنت بأعضائها وراحت تتحرر . شممتُ رائحة الصابون وتطلعتُ الى البخار القليل يتصاعد من الطست الأزرق الفاتح ، وهى ، بجسمها الوثير ، تعطينى ظهرها بضفيرتها الغليظة تلمس خصرها .

ها أنا مستلقٍ على السرير العالى النظيف ، مرتكزا بكوعى ، والى يمينى اللمْبَة نمرة عشرة معلقة على الحائط ، أمام النافذة المواجهة العالية : زجاجها مقفول ، لكن شبح البناء الرمادى كان يبدو قريبا عبر الزجاج .

تغنّى بصوت خفيض أبَح ، بينما تمد ساعديها العاريين الخمريين فى الطست الأحمر الكبير ، والبنت بين يديها لاتخشى من أمرها شيئا ، محمولة على الكفّين تحرك أعضاءها وتخرج أصواتا رفيعة غامضة ، وعيونها كأنها مشدودة الى الوجه الباسم الذى يغنى لها .

قلت لنفسى أنه آن لى أن أستريح فى النهاية ، وقد خلعت سترتى السوداء وحذائى وجوربى . أمدد جسمى وأسترخى قدر ما أستطيع . وكان ثمة هواء خفيف ، واللمبة ضوؤها يتراقص ، والفراش النظيف مغطى بملاءة ناصعة

تنبعث منها رائحة حميمة . كان جسمي مفكوكاً تماماً ، وأرغب فى التدخين ، لكننى أحس بكسل بهيج يمنعنى من البحث عن علبة سجائرى .

وحين سرحت البصر ، فرحتُ بالسقف العالى ، والفراش العالى ذى العمدان الأربعة ، تمتد عبرها الستارة البيضاء المزدانة بالنقوش الملونة . فرحتُ بالحجرة الرحبة وبأشيائها القليلة : « كليم » بنّى تجلس هى عليه تحمم البنت .. وقد تدفقت غمغمتها ومناغاتها ، و« كنبة » صغيرة تحت النافذة العالية بجانب الجدار الأيسر . ثمة أشياء أخرى بجوار الفراش ، ومن خلفه ، غير أننى لم أستطع أن أتبينها فى الضوء الأصفر المتراقص .

أخشى أن يغلبنى النوم ، وأبغى مشاهدة وجهها والغياب فى عينيها الواسعتين المحتضنتين ، بينما صوتها الرخيم المبحوح يصلنى مختلطا بغمغمات البنت مثل طائر صغير .

لا يهمنى شيء ، ولا يشغلنى إلا أننى قد وصلت بالفعل ، وها أنا مستلق على فراش نظيف ، والبنت أمامى انتهت من حمامها ، فمضت هى تلُفّ الجسم القليل بالفوطة وتضحك بصوت عال وتكلمها . التفتتْ نحوى ، فاستسلمت لعيونها وقد أردتنى قتيلا بضحكتها العذبة والفرجة الضيقة بين أسنانها العلوية . ثمة ذلك التواطؤ والأسرار والمنح والوعود ، وصلتنى بالفعل وهى تسبل رموشها الطويلة الغزيرة .

وما لبثت أن ناولتنى الطفلة بفستانها الأبيض النظيف ذى الكمين ، لتحمل الطست الأحمر وتخرج به ، ثم تعود وتشيل الآخر الى الخارج . كانت البنت تضحك ، وبدت بشعرها الفاحم القصير المبلول ، وهى تحدق حين أقربها الى وجهى ، بدت ملامحها أكثر صفاء وحلاوة حين ضحكت . رحت أدغدغها فى صدرها وبطنها ، فانطلقت تناغى وأنا أكلمها وألاعبها . ولما رأيت الطيور الزرقاء فاردة أجنحتها على الفستان الأبيض ، أخذت أدغدغها على

طيورها وأصيح بها أن الطيور طارت .. أن الطيور طارت .

إنفلتت من باب الحجرة ضاحكة ، وخطتْ نحونا صائحة :

« سيدى يا سيدى على الضحك والهزار .. » .

اقتربت من شباك السرير ، ثم أعطتنى ظهرها ، وخلعت قميص نومها المبلول ، فرأيت جسمها عاليا خمريا وثيرا ، يضوى فى النور الأصفر المرتعش . غير أنها فى لحظة ، كانت قد اختطفت قميصا آخر ارتدته بلهوجة ، قبل أن تستدير نحوى ، وتلتقط البنت من بين ذراعىّ .

جلسنا ــ ثلاثتنا ــ متلاصقين . نعم . ثلاثتنا . أخرجت ثديها الصغير وضمت البنت اليها . كان قميص نومها أبيض مغبشا بزهرات ضئيلة حمراء وزرقاء . وكان مطرزا حول صدرها وكتفيها العاريتين بشرائط دانتيل باهتة .

حرارة جسمها السخى العذب ، تسرى الىّ عبر ركبتها الملتصقة بساق ، والبنت قابضة بفمها على الحلمة البنية المحترقة ، تخمش بأظافرها وتمتص مجنونة تشهق بين الفينة والأخرى وتسعل . رفعتها الى كتفها ومضت تربت على ظهرها وتغنى بصوت خفيض . ولما استكانت البنت قليلا ، عادت تضمها وتلقمها ثديها . غير أن البنت كلما داخلتها الطمأنينة ، انطلقت تمتص بجنون . وعندما ألقمتها ثديها الأيسر ، بدا أنها تقترب من الشبع ، إذ أبطأت وانتظم تنفّسها . تغمض عينيها وتفتحهما وأصابعها كفّت عن الخمش ، قبل أن تترك كفيها يسقطان وتفارق الحلمة .

عادتْ تحملها على كتفها وتربت على ظهرها لبرهة ، ثم نهضتْ لترقدها على الكنبة ، وخطتْ نحو اللمبة ، رافعة ذراعها ليخفت الضوء وأنا انتظرها باطمئنان وتواطؤ محببين .

ولما صعدتُ الى جوارى واستلقتْ ملتصقة لى قربتُ وجهى منها وانقضضتُ على شفتيها . لشعرك رائحة البرتقال ينتشر أريجه حتى أننى أغمضتُ عينى واستسلمتُ لدوار عذب مستغرقا فى بهجة ملمس جسمك الحار . وصوتك المبحوح المتنائى وأعضائك المستجيبة الطيّعة . أجهز أزهارى وشموعى وأصناف الرياحين العطرة من الخزامى والياسمين والورد والسوسن والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وأجمع أهل الملاعب والفنون وأذبح الذبائح وأعمل الأطعمة وأضمك لى بأبراجك وعاجك وقبابك ونارك ورائحة شعرك الجفال وخرير مائك ووشيش موجك وها أن أكابد فى الاندفاع نحوك والامساك بك راغبا فى مناداتك والهتاف باسمك غير قادر على تبين شفتيك المفتوحتين الشهيتين تجيباننى فأرفع رأسى محاولا الامساك بعينيك الواسعتين تلمعان بفرح وجسمك يحيطنى بكل هذا الحنو الذى أهفو اليه ولابد أن تجيبى علىّ هذه المرة نعم اسمك يهمنى ويقينى أن حنو هذا الجسم أمر يخصنى وحدى وضغطتُ بكفى على كتفك العذب وأنصتُّ لبحّتِك المتألمة وابتعدتُ قليلاً وقد روعنى نهداك الصاحيان الأسمران الخمريان فاستدرت ورأيت ظهرك فى الضوء الأصفر الخفيف بالكدمات والسحجات البنية الداكنة تنتشر على الكتفين وتتوزع على الظهر الخمرى الهابط بتلك النعومة الساطعة وشعرك نعم يحتفظ برائحة البرتقال مايزال وعيناك الواسعتان تهربان منى لم لا تردين علىّ اذن وتبوحين لى باسمك ما اسمك وأنت جميلة هكذا هذا الفم الحلو وتلكما الشفتان اللتان تسمحان بدفقات الضوء المنثال من الفرجة العلوية الضيقة ورائحة أنفاسك كل ذلك أعرفه والدوار يلاحقنى وأمد يدى لاحتضنك فتحل برودة قارسة وصوت ارتطام قاس وعال

وأتلفت حولى محاولاً تبين المكان جسمها بجوارى يحجب عنى
التحقق من وجود البنت الراقدة فى سريرها واستطعتُ بالكاد أن
أميز نقوش عباد الشمس الصفراء الباهتة ولما استدارتْ بوجهها
وجسمها وأخذتْنى اليها مرة أخرى حلَّ محل رغبتى العارمة
إحساس طاغ بفقدانى القدرة على مقاومة موجات البرودة التى
لا أدرى من أين تهاجمنى ولما بدأت قطرات المطر فى السقوط
خارت قواى وأدركت أن الماء لن يلبث أن يغمرنى .

ب د و ح

كان ثمة جلبة وضوضاء فى الخارج ، وحين أصبح فى وسعى أن أتقلب فى الفراش ، ابتعدت الأصوات مرة أخرى .

فتحت عيني وداخلني الخوف ، وسرعان ما انقبضت واحسست بثقل غريب يجثم على صدرى ، عندما حانت منى التفاتة الى الضوء الأصفر المتراقص للمبة المعلقة على الحائط . استطعتُ أن أستقيم قليلا فى الفراش ، وأنا أمد بصرى نحو الكنبة المُجاورة . خطوت نحو البنت ، فيما كنت أقول لنفسى ، محاولا السيطرة على اعضائى : ذراعاى ها هما . كتفاى ورقبتى ورأسى وساقاى . أما هى ، فقد غادرتنى مرة أخرى .

كانت الطفلة صاحية ، تجهد فى دفع ذراعيها الصغيرتين ، بينا قبضتاها دقيقتان مضمومتان . التقت عيوننا ، وتحرك شيء ما فى وجهها . لا شك أنها عرفتنى . وسرى فى جسمها نشاط مفاجيء ، وهى تلوّح بقبضتيها . مددت يدى لكن الدوار داهمنى ، فارتكزت على الأرض بركبتى أضحك لها وألاعبها وأنادى على طيورها الزرقاء التى فردت أجنحتها على الفستان الأبيض .

عادت الجلبة مرة أخرى . دمدمة تتصاعد وتخفت . تختلط فيها أصوات بشر بأصوات قطار وطلقات نار وصيحات مكتومة مختنقة . كل ذلك ينهال سريعا ، لينقطع بعد ثوانٍ قليلة .. وتتبقى فقط تلك الدمدمات المدغومة

الغامضة .

لاحظتُ أثر ذلك على ملامح البنت التى انعقد جبينها ، وكفّت عن التلويح بقبضتيها ، فانحنيتُ وحملتها من فراشها برفق وضممتُها الى صدرى . كانت مبلولة ، بالرغم من أنها استكانت فى حضنى صامتة وقد فتحت عينيها الحلوتين . قمتُ أدورُ بها فى الحجرة ، أفتّشُ عن الحقيبة . وفى نهاية الحجرة كان الباب الخشبى مغلقا . وسرعان ما عُدْتُ أدراجى ، لأن الأصوات ترددت مرة أخرى ، قريبة من الباب هذه المرة .

ليست هناك مشكلة فى أن أمد يدى الى الحائط نحو اللمبة المعلقة . حرّكت الفتيل ، فشعرت بقدر من الراحة ، حين سطع الضوء ، فاستأنفت بحثى عن الحقيبة التى كانت متدلية من كتف الجميلة التى فقدتها ، مثلما فقدت الغورية منذ قليل ، بل ومن قبل لما فقدتها فى مار جرجس . وها أنا مطالب بالاختيار مثلما واجهت من البداية : عندما قررت أن أهبط من الحجرة الى الخارج ، الى أن وصلت الى هذه الحجرة التي سحرتنى بسقفها العالى ونوافذها الشاهقة ورائحتها الفواحة .

ماتزال رائحتك فى الفراش . شعرك المضمخ بأريج البرتقال وجسمك الخمرى ، لما سكنتُ لك وسكنتِ لى ، قبل أن أفقدك وأفقد قدرتى على الصمود لهذا التيه ، وهذه الفخاخ المنصوبة دوما : ما أن تنجح فى الفرار من أحدها ، حتى يتسلل اليك الآخر ، لا تدرى من أى طريق يسلك .

فى البداية ، كان الأمر سهلا واضحا . ثمة أماكن اهتديت اليها ، والمفترض أن أنطلق منها نحو أحد الأماكن التى أستطيع أن أنجو فيها أنا والبنت . لدى مثلا بيت عم عزه ، أو شقتنا فى شبرا الخيمة ، والتى لا أستطيع أن أجزم بأننا مازلنا نقيم فيها أو غادرناها بعد أن حملت عزه وفقدنا الطفل عقب ولادته بأيام قلائل . وأيا كان الأمر ، فعلىّ أن أعترف لنفسى أننى أسوق كل هذا اللغو

لأتجنب الخوض فى هذه الطالعة التى فشلتُ فى التقاط اسمها وهى تحملنى على جسمها الفاره وأعضائها المبهجة .

ها هو قلبى يدق ـــ أليس هذا غريبا ؟ ـــ مثلما كان يحدث لى وأنا صبى . هذا الاحساس الحميمى المجنون المنفلت والممتثل لرؤيتها فقط . ها هو قلبى يدق وأنا أتحسس جلدها الخمرى الوضّاء ، وأريج البرتقال فى شعرها ـــ يمنحنى الدِّعة والصفاء . لا أعرف إلا أننى غمرت فجأة بماء بارد ، رحت أدفعه بعيدا عنى وأنا أسألها عن اسمها . وكنت أعرف أن الماء يتدفق من السقف قطرات تحولتْ الى سيل أدفعه عنى باحتضانها بقوة ، والتمسك بأن اتعرف عليها وأن تسرّ لى باسمها . قلتُ لها إننى لا أريد أن أفقدها مرة أخرى ، بل أننى لا أستطيع أن أحتمل فراقها .

مثل الأيام البعيدة التى ولّت ، ها هو قلبى ينتفض ، قبل أن يدبّ فىَّ كل هذا الهرَم والامتثال للضجر . كِدْتُ أنسى هذا الاجتياح العنيف المسيطر ، وتلك اللهفة والألم اللذيذ والترقب . أكاد أعجز عن تصديق أن هذا ما جرى لى فى البداية حين عرفتُ عزه . ما أن ألمحها من بعيد ، واقفة على محطة الاتوبيس ، حتى يشتعل وجهها الصريح المباشر لما تلتقى عيوننا ، فتندفع نحوى لاحتضانى ، دون أن تلقى بالا للناس الذين يبحلقون . حينئذ أضطر لاختطاف يدها قبل أن تلقى بنفسها . تزوجنا فى الخريف . إصطحبتها مع أحمد وفيق وأسامة ، وصعدنا الى شقة المأذون عند سوق الخضار . كان الرجل متعجبا وهو يذكر لى أجره قبل كتابة العقد . عجوز كليل البصر ، يدفع عنه أطفاله الكثيرين ونساءه وبناته ، وهو يتحرك فى حجرة الجلوس الضيقة بصعوبة ، ويحدق فى وجه عزه التى واجهته بضجر ، وبدأت فى معاملته بجفاء كنت أخشى أن يتطور ، بعد أن كادت تنهار مجهدة عقب يوم كامل قضيناه فى بيت أسامة وحدنا . أكملت له ما طلبه من جيب أسامة قبل أن يكتب العقد ، ويتخذهما ـــ أحمد وفيق وأسامة ـــ شاهدين على زواجى من عزه على سنة الله

ورسوله وعلى مذهب ابى حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا . هبطنا ، وأنا أبحث عن صوتى دون أن أجده ، وذهبنا ــ عزه وأنا ــ الى كازينو الحمام وشربنا بيرة مثلجة ، قبل أن أوصلها الى باب بيتها فى شارع « مسرة » .

أجل شارع « مسرة » فى شبرا . لقد تذكرتُ . كانت تلك هى المرة الأولى التى نسير فيها معا حتى نتوقف أمام باب بيتها بالضبط . قالت ، تعالى معى . ندخل معا وأنا أقول لأمى أننى تزوجتك . كان وجهها متلألئاً فى النور القليل أمام المدخل ، وهَمَمْتُ بالدخول لأننى لم أكن قادراً على فراقك ، ثم تراجعتُ بعد أن تقدمتِ أنت نحو باب الشقة .

وفى كل الأحوال ، لدىَّ الآن أماكن ثلاثة أستطيع أن أبدأ من أى منها : عم عزه فى شارع الخليج ، وبيت عزه فى شارع مسرة وشقتنا فى شبرا الخيمة . لست واثقا من هذه الأخيرة ، (وهل أنت واثق من بيت شارع مسرة ؟) لم يكن ثمة أكثر كآبة من مكان بلا ملامح : عشرات البيوت القصيرة والطويلة التى تنهض فجأة وسط بحيرات من المجارى وجيوش من الذباب فى النهار والناموس فى الليل ، وناس يأتون من كل الأماكن ليختطفوا مسكنا من وسط الورش والمصانع الصغيرة التى تملأ السماء بدخانها . تقول هى لك أن الكهرباء مقطوعة وليس لدينا ماء ، فتختطف الجردلين تملأهما ماء من أول الشارع . وما أن تستقران حتى تجدا الأسباب التى لا تنتهى لعراك يستمر حتى صباح اليوم التالى دون نوم ، وتستأنفانه حال عودتك ظهرا من المدرسة التى تعمل فيها اخصائيا اجتماعيا عينتّه الحكومة لحلِّ مشاكل طلاب مدرسة التجارة الثانوية ، الذين يعمل أغلبهم مع معلمين مخدرات وتجار عملة فى الأزهر وخان الخليلى والوسعاية . واذا خرجتما لزيارة أصدقائكما ، فلابد أن يحدث عراك فى الطريق . أربعة مخالب مشرعة على الدوام ، وأربعة شفاه تعودت على الجرح والضغط والوصول الى الذروة سريعا . كيف استمر هذا الحال حتى أجهضتْ عزة فى طفلتنا الأولى بعد سبعة شهور ، وطفلنا الثانى الذى ولد مبتسرا بعد

ذلك بعامين ، فأودعناه الحضانة الزجاجية ولم أتمكن من رؤية لون عينيه ؟ . ثم كيف كنا نجد وقتا مع ذلك للحظات حب مشبوب ، نختطفها اختطافاً بعد ليلة نسهر فيها حتى الفجر ، حيث نرى الفلاحين خارجين الى حقولهم مع حيواناتهم . بل وكيف وجدت أنت وقتاً للكتابة والقراءة ، والعمل مع زملائك فى التنظيم الصغير الذى كان خط دفاعك الأخير ، لو فقدته ، فسوف ينهار كل شىء .

بالرغم من كل ذلك ، فلن تستطيع التعرف على شقة شبرا الخيمة وسط كل هذا الازدحام والطرق المتقاطعة غير المعبدة والحوارى المختلفة عن كل الحوارى برائحتها وترابها وقمامتها وبحيرات مجاريها ، طالما قطعتها مكدوداً غارقاً فى العرق ، حاملاً الخضار والخبز والكتب .

من أين أبدأ إذن حتى أصل اليها ؟

تنبهت الى صوت الطفلة المبلولة بين ذراعى . قلت لها وهى تهز وجهها الصغير الحلو :

ها نحن مرة أخرى نواجه مأزقا صعبا ، لكنه لن يكون أكثر إحكاماً من كل الفخاخ التى سبق لنا أن نجونا منها . يكفى أنكِ رضعتِ منذ قليل ، وربما أنها فارقتنا لتأتى لنا بطعام العشاء .

لكننى أحتاج الى التدخين الآن . ها هى علبة السجائر على الكنبة ، أما الكبريت ، فبوسعى أن أشعل السيجارة من اللمبة هكذا . هل يضايقك أننى وضعتك مرة أخرى فى فراشك الصغير الذى أطلّت منه زهرات عبَّاد الشمس النارية ؟ . لا أستطيع أن أحمل اللمبة التى أشعل من فوهتها سيجارتى وأنت على ذراعى .

علّقتُ اللمبة على المسمار مرة أخرى ، وحدستُ — فى لحظة خاطفة

ـــ أن هذه العين المعدنية الزرقاء ، كانت موجودة من قبل . تشبثت بك طويلا ، وكابدتُ لملاقاتك وأنت تحتضنيني وتضميننى وأعضاؤك طليقة مرنة حنونة . لحظتها وجدتنى غير قادر ، ورحتُ أشعر بالماء يغمرنى وأنا أسألك وأسألك وأهمس للكِ أننى لن أحتمل اختفاءك مرة ثانية .. ولحظتها أيضا لمحتُ هذه العين الزرقاء الوسيعة المعلقة على مسمار يعلو الكنبة ، وكحلها مرسوم بلون أزرق أكثر دكنة . نعم . أتذكرها . مكان انسان العين فراغ ، وثمة سهم يبدو طرفاه أعلى وأسفل العين ، وقد إنكسر نصفه فى فراغ العين الفرعونية الواسعة .

تحدقينَ نحوى بإجرام مستبد ، تنتظرين أن أعود لحملك ، كأنكِ لم يكْفِكِ هذا الوقت الذى حملتكِ خلاله منذ أن نزلنا معا . ليتنا لم ننزل . نعم . أعرف أنكِ لست مسئولة . لكننا لو انتظرنا قليلا ، فربما وجدناها تفتح الباب فجأة .

عندئذ سوف أمسكُها ولن أرخيها حتى أنجح فى التعرف عليها . كان جسمها ممتلئا بكدمات داكنة على الكتفين والظهر ، وكانت تجهش بالبكاء وأنا أتشبث بها . هل تشمّين هذه الرائحة العبقة ؟ انها رائحتها ورائحة حدائق البرتقال . يمكننا أن نتعرف على رائحتها ، حتى لو لم تأت . ما رأيك لو ظللنا سائرين فى الشوارع نتشمم حتى نعثر عليها ؟ .

إنعقد جبينها وانكمشتْ فى صدرى ، إذ عادتْ الدمدمة الغامضة : أصوات الناس والقطارات وطلقات الرصاص المتداخلة ، وهى تعلو فجأة وتكاد تتضح ، لكنها تخفت قبل أن التقطها وأحاول تفسيرها .

إستدرتُ الى البنت قائلا : ما رأيكِ ؟ .

أظن أننا لا يجب أن نقع فى نفس الخطأ مرة ثانية ، ونبادر الى النزول

متعجلين كأن وراءنا عملاً لايحتمل التأجيل . وعلى العموم ، سوف أغيِّر لكِ لفائفكِ بأى شكل .

عاودت بحثى عن الحقيبة ، وفكرت بأن عدم وجود الحقيبة ، أو عدم عثورى عليها ، لايعنى أنها أخذتها معها قبل أن تهبط ، كما أنه لا يعنى أنها لن تعود . كان بهاؤها وطزاجتها وسطوعها الناعم غير محتمل حقا ، بضفيرتها الغليظة حتى الخصر ، حتى وهى ترتدى زيّها المدرسى الكحلى وتعلّق الحقيبة على كتفها .

لو كنتُ قد تذكرتُ المدرسة التى سرتُ بجوارها فى البداية ، لتغيرت أشياء كثيرة . بل لو كنتُ قد حسمتُ على الأقل ، ما اذا كانت هى المدرسة التى عملتُ فيها بعد تسريحى من الخدمة فى الجيش وانتهاء الحرب ؟ أو أنها مدرسة أخرى عرفتها وأنا صغير ؟ .

على أى حال ، يجب أن أعترف أننى أشعر براحة خفيّة ومريبة لأنه لم يعد متعيّناً علىَّ أن أساق الى عملى فى الصباح . سوف أستمتع بصحبة البنت بالرغم من كل ذلك . قبضتاها الصغيرتان ووجهها الرائق المستجيب . لو تأتى هى ، ثم نهبط ثلاثتنا فى الصباح المبكر ونتخذ طريقنا الى النيل . نجلس فى الشمس معا ـــ أنا وهى ـــ ونلعب مع البنت .

إذن ، فالحقيبة غير موجودة ، وثمة قميص نوم معلق على شباك السرير . عندما تعودين ، لن يستغرق الأمر ثوان قليلة أوضح لك فيها سبب استخدامى لقميص نومك ، وسوف تضحكين وأنت ترددين أننى أغرق فى شبر ماء . مزّقت القميص بصعوبة ، غير أننى مزقته فى نهاية الأمر ، واتجهتُ نحوها لاهثا . حملتها الى الكنبة وجلستُ بجوارها . نزعتُ عنها اللفائف المبلولة ، فبَانت الفرحة على وجهها ، وراحتْ تدفع بساقيها الصغيرتين . عندئذ ، لاحظت أنها تشبهنى بالفعل : تلكمُا العينان الصغيرتان البنيَّتان ، وهذا الشعر

بلون البن الغامق ، وثمة شيء خفى وعميق مشترك بيننا . أخذت أتذكر كيف أعيد ربط اللفائف كما كانت ، ووجدتنى أستخدم جزءا من قميص النوم كافولة ، والجزء الآخر أستعمله « لفة » ، وهتفت : هيه ... ما رأيك ؟ .

إبتسمتْ ومضتْ تدفع بذراعيها وأصابعها الدقيقة مضمومة على كفيها .

أمسكتُ باللفة والكافولة ، وخطوتُ لأنشرهما على شبّاك السرير ، وخُيِّل لى أن ثمة أقدام تدب فى الخارج ، فجريتُ نحو البنت واختطفتها ، ثم تراجعتُ محاولا الاختباء خلف شباك السرير . هل يكونوا قد اقتنصونا أخيراً ؟ . وما هى إلا برهة حتى ابتعدتْ أصوات الأقدام ، لكننى لا أدرى لم تهيأتُ لعودة الدمدمة الغامضة التى تأتى من الخارج ؟ . وبالفعل ترددتْ أصوات طلقات رصاص بعيدة ، ثم انقطعت مخلفة صدى مكتوما .

احتضنتُ البنت جيدا ، وتنفستُ بقوة هامسا :

« يبدو أننا قد نجونا مرة أخرى .. » .

أعدتها برفق الى سريرها ، وقرصت خدها قرصة خفيفة . لمحتُ سترتى للمرة الأولى محشورة بين السرير والكنبة . كان ثمة أوراق أحسستُ بها فى جيب السترة . أخرجتها من بين بقايا لب ودخان وكبريت وتراب وزرارين بيضاويين صغيرين . كيف لم أنتبه إذن لأن افتش فى جيوبى ؟ . على الأقل ، قد تكشف لى هذه الأوراق عن بارقة صغيرة من النور .. هذه أرقام تليفونات . مدام رجاء . الأبنودى . سيد سعيد . جريدة الأهالى ــ فؤاد ــ الأهرام ــ عبلة (منزل) . الورقة الثانية بها أرقام تليفونات أيضا وعنوان فى الهرم ، ثم ورقة أخرى فردتها كى أقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ــ تكتب بالحبر الأحمر الآتى على ورقة :

ألم نشرح لك صدرك يا فلانه بنت فلانه ووضعنا عنك وزرك يا فلانه بنت فلانه الذى أنقض ظهرك يا فلانه بنت فلانه ورفعنا لك ذكرك يا فلانه بنت فلانه فان مع العسر يسرا يا فلانه بنت فلانه ان مع العسر يسرا يا فلانه بنت فلانه فاذا فرغت فانصب يا فلانه بنت فلانه والى فلان بن فلانه فارغب .

تبخر الورقة بلبان دكر وبخور وتوضع فى مسار دخان البخار وأثناء التبخير تقرأ سورة الشرح ٧٠ مرة وكل عشر مرات تدعو : توكّلوا يا خدَّام هذه الآيات الشريفة بإلقاء محبة فلان بن فلانه فى قلب فلانه بنت فلانه .

وتحتفظ بهذه الورقة فى جيبك وتقابلها .

يتم عمل هذه الأشياء بعد آذان العصر يوم الاثنين فى النصف الأول من الشهر العربى .

٢ ــ تحضر عدد سبعون فلفلة سوداء وتأخذ فلفلة واحدة سوداء كل ٧٠ مرة بلسانك وتضعها فى نار الفحم وتقرأ آية الكرسى كل مرة ثم تدعو :

توكلوا يا خدام هذه الآيات الشريفة بإحراق قلب فلان بن فلانه فى قلب فلانه بنت فلانه .

وتستمر فى ذلك حتى آخر فلفلة .

يتم عمل هذه الأشياء بعد صلاة العشاء .

ملحوظة : عدم لمس الفلفل باليد ويوضع فى كيس أو اناء .

٣ ــ تحضر كوب ماء وتشرب منه وتقول : بدوح ثم تعطيه للمحبوبة وتقرأ أو تكتب كلمة ب د و ح على بمبونه أو لبانه ثم تعطيها للمحبوبة وتقول : توكلوا يا خدام هذا الاسم بإلقاء محبة فلان بن فلانه فى قلب فلانه بنت فلانه .

تأملت الخط ، وراق لى ما قرأته . هذا الخط ليس غريبا علىَّ . هل هو

خطى إذن ؟ . أم خط عزه ؟.. تنبهت بسرعة ، وفردت ورقة من الأوراق المدونة عليها أرقام التليفونات ، لكننى غبت أحاول تذكر هؤلاء الناس المكتوبة اسماؤهم بجوار الأرقام ، يمكننى أن أتثبت على الفور عن طريق طلب أحدهم على التليفون ، وان كانت مسألة الحصول على تليفون تبدو أمرا مستحيلا ، بل وفكاهيا أيضا . نعم . لقد نسيت سبب تفحصى لأرقام التليفونات . أخذت أحاول مقارنة الخط ، غير اننى نفضت الأمر برمته ، واجتاحنى قلق وانقباض . ثم قلت ، وما أدرانى أن هذه الورقة ورقتى أصلا ؟. ربما أكون قد التقطتها بعد أن سقطتْ من تحت مخدة السرير ، مثلما التقطتُ السترة معلقة بين السرير والكنبة .

أمسكت بالورقة بين يدى ، واستلقيت على السرير ، وسرعان ما فردت الورقة ثانية لأعيد قراءتها .

قردة

كأن فرقعة السوط التى دهمنى صوتها تنهال على جلدى . تحدث رنينها الجارح ، قبل أن تخبط موجعة غائرة ، فيما أجز على أسنانى ، راغبا فى الصراخ بأقصى ما أستطيع . وعندما أفعل ذلك ، لا أتبين لى صوتا . إلتهبتْ عيناى فجأة بلسعة خفيفة جعلت الألم يتدفق مثل نار حامية . بين اللسعة واللسعة ، فى تلك المسافة المنتظمة ، أدفع الخدر المختلط باللهب المجنون ، فتباغتنى اللسعة ممسكة بروحى ، وأستشعر المهانة والضعة ، من استسلامى لانهمار الضربات .

عيناى فتحتهما ، وتبينت ضوء اللمبة نمرة عشرة يتراقص ما يزال ، أما الورقة فهى فى يدى ، وأنا مستلق على الفراش ، والبنت على الكنبة نائمة . أطبقت الورقة ووضعتها فى جيب السروال ، ونهضت بجذعى ، غير أن الدوار والاعياء جعلانى أغمض عينى ، وقلت ، ها هى لم تأت ، وعلىَّ أن أحدد خطوتى التالية . لا أعرف كم غابت منذ فارقَتْنى ، وغادرنى جسمها الطيِّع الودود ، رحيباً لما يلتفُ حولى ذراعاها وساقاها . وأدركتُ بوضوح أن علىَّ أن أضع فى اعتبارى إمكانية ألا تعود . فأنا لا أدرى الملابسات التى أحاطت بخروجها .. ثم .. ثم فرقعة السوط مرة ثانية .

اذن ، فأنا لم أكن نائماً . انها فرقعة سوط حقيقية أسمعها ، ويعقبها ما يشبه الهمس والصرخات القصيرة المكتومة . اقتربتْ الأصوات ، وشعرتُ بها أمام باب الحجرة .

وحين دنوتُ من الباب ، عَلَتْ الصرخات الحيوانية وتقطعتْ وانتثرتْ . إلتصقتُ بالباب ، وفتحته فتحة متناهية الضآلة ، سمحتْ لى بمشاهدة القردة الخمسة الصغيرة المسلسلة جميعها بسلاسل حديدية ، جعلتْ حركتها ومجاهدتها فى صعود درجات السلم عملا جنونيا ، تصحبه صرخات تشتعل إذ تحس بفرقعة السوط . كان ثمة ضوء خفيف يكشف الدهليز وجانبا من السلم والدرابزين المعمول من الحديد المتشابك .

من ذا الذى يتقدم ممسكاً بكرباجه إذن ؟ .

دفعت الباب بسرعة ، وألصقتُ كتفى به هامسا : أمِنَ الممكن أن يكون هو ؟ . أنا لا أنسى عيونه ، ونظرته المنذرة الثقيلة ، ووجهه الفاتح وفودَيْه الأشيبين ورأسه الخالى من الشعر .

عدتُ أفتح الباب وأنا أكثر حذرا ، وشفْتُ العجوز الذى كان يستحم فى طسته قاعداً ، ينظر لى نظرته الصامتة الثقيلة ، شفته إذن ، يتقدم وئيداً بكرباجه ، والقرود المكبّلة بالسلاسل تتدافع مجنونة أمامه على السلم والدرابزين وفوق بعضها البعض . كان يرتدى جلبابا داكنا له ياقة وأزراره مفتوحة . رأيته وهو يعبر أمام الباب ، ومن خلفه كانت المرأتان اللتان ظهرتا فجأة . لكننى قلت لنفسى أنهما موجودتين ــ ولا شك ــ منذ وقت طويل . وسرعان ما تعرفت عليهما ، فقد رافقتانى فى العربة التى يجرها الحصان ، وهبطتا معى عند باب زويلة . نعم .. هذه هى المرأة الصغيرة وقد خلعت ملايتها اللف ومنديل رأسها الأبيض ، فبان قميص نومها الأخضر كاشفا عن ساعديها وذراعيها ، وهى تميل على المرأة القصيرة الراسخة الجسم . ها هما تتهامسان فى الضوء القليل عند بسطة السلم القريبة . وعندما تحركتا ، تيقنتُ منهما ، فقد كانت الصغيرة تعرج بساقِها وهى تصعد درجات السلم .

أغلقتُ الباب ، وتراجعتُ الى الكنبة ، حملتُ البنت واختطفتُ

لفائفها ، ثم وضعتُ قدمى فى الحذاء واستندتُ بظهرى الى الباب . ابتعدتْ الصرخات وبدأتْ أصوات الدبيب تحل مكانها ، وحركات الأقدام القلقة الملولة .

مضيتُ أمسح الحجرة بنظرة أخيرة ، وأنا مستند للباب ، وتوقفتُ قليلا عند العين المعدنية الزرقاء المعلقة على الحائط ، ورجوتُ البنت أن تبقى ناعسة حتى نخرج .

إبتعدتْ الأصوات وملأنى كمد وقهر ، غير أنه كان علىَّ ألا أستسلم لهذا الإنقباض الوشيك ، واتخذتُ لنفسى وضع المستعد ، قبل أن أفتح الباب فتحة ضيقة ، وأطلُ برأسى .

أغلقتُ الباب خلفى ، وعبرتُ الدهليز ، وقد أدهشنى طوله المفرط ، الذى أفضى بى الى درجات السلم الواسعة المريحة : عيناى تسبقاننى ، وتغوصان فى ظلام يتكاثف شيئا فشيئا .

كان ثمة رائحة خانقة ، أحسستها تشبه الرائحة اللاسعة الكاوية للقنابل المسيلة للدموع ، وأنا أهبط وأهبط ، وقد توقفتُ عن محاولة تمييز أيَّما شىء فى الظلام الكثيف . أهبط خائفاً ذلك الخوف الذى أمقته ، وما أن أواجه نفسى متلبساً به حتى أحاول درأه . أنا لم أصعد كل هذه الدرجات من قبل ، ذلِكُمْ أمر مؤكد ، فإلى أين أهبط إذن ؟ . لجأت أخيراً الى البنت أضمّها لى ، كى أستشعر حرارة جسمها والاختلاج الخفيف لشهيقها وزفيرها . هربتُ من العجوز بعيونه المنذرة الثقيلة وسوْطِه ، والمرأتان تسعيان من خلفه ــ هربتُ الى شَرَكٍ مُحْكَم لم أتوقعه مطلقاً . وأهبط وأهبط وأقول لنفسى ربما كان من الأفضل أن أمكث بالحجرة ، وألاّ أكرر نفس الخطأ الذى ارتكبتُه من قبل .

خِلْتُ أن وقتا طويلا قد مضى ، لأننى أغمضتُ عينى فى النهاية ، وقلتُ

لنفسي .. ليحدث ما يحدث ، وتركتُ نفسي لدرجات السلم ..

كان سلما طويلا ذلك الذى هبطته من قبل العصابة على عينى ربطها العسكرى باحكام وانا أشيح بوجهى بعيدا عن أنفاسه بعد أن تأكد من إحكامها الضابط السمين الخائف لا يهدأ ولا يستقر قَطْ يعدل من وضع الرشاش القصير على كتفه ويدفعنا بكوعيه ونحن مقيّدون كل اثنين معاً فى قيد واحد لم يفكّونا إلا أمام وكيل النيابة ذى النظارات الذى سألنى عن إسمى وسنّى وعنوانى وعملى وأمر بحبسى قبل أن أنتهى من الاجابة على أسئلته وأنا أفتح فمى مشدوها من جدّيته المفرطة وحديثه المقتضب يهز لى برأسه أسفل صورة السادات فأساله بدورى عن اسمه وسنه وعنوانه فيزعق مؤكدا أنه السيد النيابة بنفسه وينقض العسكرى بعصابته يُغَمِّينى ويجيء الضابط تسبقه قفزاته أحسها تلطم الهواء ليطمئن على قيدى مع ولد لا أعرفه ويدفعوننا بدباشك البنادق وتباغتنى الضربات على الرأس والظهر والجنبين وأهبط وأهبط على سلالم لا تنتهى وأصطدم بأولاد أمامى وأولاد خلفى وأهبط وأهبط ولكننى أتعرف على أصوات بعضهم وأعرف الولد المربوط معى الذى رأيته للمرة الأولى فى حجز قسم السيدة زينب حينا قبضوا علّى وأودعونى هناك مع أولاد كنت أعرف بعضهم غير أننى لم أكن أعرف هذا الولد الأسمر الهادىء المقيّد معى والذى قبضوا عليه بدلاً من أخيه الهارب وأهبط وأهبط ولا أدرى كيف صعدت الى العربة اللورى عائداً الى سجن المرج وكان قد قطع ساحة العرض بصحبة قادة كبار يتراقصون برشاقة وبمشية الأوزة المختالة حتى نُصب الجندى المجهول وعاد الى منصته وقبض على عصا الماريشالية مشيراً الى قائد طابور العرض

وهو جالس يعدل من وضع وشاح القضاء على صدره ونياشين
المهيب ورتب الفيلدمارشال الموشّاة بالقصب قبل أن يتلقى
دفعات تلو دفعات من رشاشات العساكر الذين توقفوا أمامه
فجأة بعربتهم الصغيرة وتدفقوا نحوه واعتلوا المنصة ومضوا
يطلقون ويطلقون متحلّقين حوله يحاصرونه وحده وأهبط وأهبط
ولا أعرف كيف صعدتُ الى العربة اللورى عائدا الى سجن
المرج حيث خلعوا عنى العصابة أمام زنازين عنبر التجربة ثم
دفعوا بى مع زميل الى الزنزانة وقد أصبح العساكر أكثر هدوءا
بعيداً عن ضباطهم وفى داخل سجنهم الذى لم نكن قد رأينا فيه
إلا عنبر التجربة خلال الشهور الأربعة قبل أن ينقلونا بالعربات
ودون عصابات على عيوننا وشاهدنا الأشجار والناس والبيوت
والنيل والنساء والشوارع والسيارات والبائعين والدكاكين عبر
الفتحة الصغيرة المغطاة بالأسلاك داخل اللورى حتى عنابر
التأديب بسجن القناطر للرجال فى مواجهة سجن النساء الذى
تصلنا منه أصوات الأفراح الصاخبة التى يُقمْنَها عشية الإفراج
عن إحداهن وأهبط وأهبط ونمتلك عنبراً كاملاً لنا وحدنا ونهدد
بالاضراب لتفتح علينا الزنازين والفيلدمارشال الأسود إخترقته
مئات الطلقات بين آلاف الجنود والطائرات والمدافع والدبابات
والمجنزرات وسفراء الدول الحليفة والصديقة والدول الكبرى
والصغرى والمتوسطة بعد أن أودع الآلاف المعتقلات التى أقامها
على عجل قبل أن يصدر قرارا بآخر ألقابه باعتباره سادس الخلفاء
الراشدين رضوان الله عليهم وكرهنا الزنازين الضيقة التى لا
تفتح طوال الليل والنهار فى سجن المرج الذى أعادونا اليه مرة
أخرى وكأنهم وقعوا فى حيرة أين يذهبون بنا ومعى زميلى الذى
يقىء كل يوم من حساء زنخ لا يغيرونه صباحا ومساء وكرهت

مشاركتي لآخر في دورة مياه ضيقة مفتوحة على الزنزانة الضيقة يفصلها عن الزنازين الضيقة المواجهة ممر ضيق لا أرى عبره الا زنزانة الولدين الآتيين من بورسعيد يُمثِّلان لنا كل ليلة ويُغنيِّان :

ولا غِنىَ ولا صيتْ
ولو انى بسيط
ومعايا الشمس مرايه
والأرض سرايه
واغنِّى وأقول
مهما اتأخر
الفجر ها يطلع يتمختر
راكب مُهْرَه ولابس أخضر
ومعلّى البيرق والرايّه
ولاَ .. ولاَ .. ولاَ غِنىَ ولا صيتْ
ولا نِتْخلَّقْ ولا نحزن غير لو نِتْفَرّقْ
اسمك اسمى وانا بتشوّق
بنى آدم جرحى ودَوَايا
ولا .. ولا .. ولا غِنىَ ولا صيت
ع اللى فتنها .. والشمس بتضحك لِوْدَانْهَا
واللى تَملّي برّه غيطانها
معرفش الرايحه من الجايه
ولا .. ولا .. ولا غنى ولا صيت
ع اللى فَتنِّى .. أهْوَن م الطير اللى يغنى
ومن الغزلان المتأنّى
لما يعدِّى قنَايَه .. قنَايَه

كان صوتى حلواً والبنت أحسست بها تستيقظ دون أن أقدر على تبينها

فى العتمة ، تهزُّ رأسها وتتلفتْ ، ساعية الى صوت المغنّى الذى اكتشفتْ أنه يصدر عنّى . رفعتها وألصقتُ خدّى بخدِّها ، وضممتُها خائفاً أن تسقط اللفائف التى نجحت فى اختطافها فى اللحظة الأخيرة ودسستها تحت ابطى . وحين تذكرتُ التميمة التى قرأتها فى الحجرة ، خُيِّل لى أن ثمة ضوءاً غامضاً بعيداً راح يقوىَ ، فيما أخذت أركض نحوه حتى بلغتُ الباب أخيرا ، وخرجت .

كان الهواء شديداً وأحسستُ بالبرودة قارسة . إندفعت ومعى البنت أضمُّها خائفاً عليها ، واكتشفتُ أننى نسيتُ سترتى ، لكننى رأيتها تغذُّ السير هناك بثوب بنفسجى ، قبل أن تنحرف فى الناصية التالية .

عتمة خفيفة تملأُ الطريق ، وبيوتٌ تمر بى أبوابها أشمُّ رائحتها الدبقة المكتومة ، تهب على بين لحظة وأخرى ، وأنصتُ لأتبين الأصوات الغامضة ، وأتساءل بينى وبين نفسى ، اذا كان ما أسمعه حقيقيا ، ثم أجرى خلفها وأنحرفُ مثلما انحرفتْ ، حتى لمحتها هناك وقد بان شعرها الأثيث تحت الضوء الذى غمرها واقفةً تتلفت حواليها .

لمَّا وصلتُ اليها ، كانت قد استوقفتنى سيارة أجرة ، فجريتُ بكل قوتى حتى بَلَغْتُها قبل أن تغلق الباب ، وركبتُ بجوارها . ابتسمتُ لنفسى ومددتُ ساقى ، وخطر لى أن أمد ساعدى وأطوقّها : اجذبُها نحوى وأشمُّ رائحة شعرها وأحكِى لها عمَّا جرى لنا منذ فارقتنا . أقول لها ــ فرحاً مهتاجاــ ما كان لك أن تفعلى ما فعلت ، لكن المهم أننا ــ ثلاثتنا ــ معاً الآن . كان شعرها يغطى جانب وجهها ، يرتعش مغموراً بالأضواء المتسللة الينا من الخارج . كان فاحما كثيفا يتهدل على جسمها مرتعشا مستسلماً لدفقات الهواء ، وانتبهتُ الى صوت السائق المفاجىء .

« ما الحكاية يا بك .. صبرت عليك لتقول لى عن طريقك .. » .

نظرتُ اليها ، فالتفتتْ ورأيتُ وجهها للمرة الأولى . ها هو الشرك وقد تم إحكامه جيدا . وها أنا قد هويتُ بالفعل . لم تكن هى . ولكن ربما كانت هى . واذا كنت قد تعرفتُ عليها سريعا حين تنكرتْ فى زى بنات المدارس فمن الممكن أن يكون الظلام الذى يكتنفنا سببا فى عدم تعرّف عليها بسرعة . وجدتنى أصيحُ فى السائق :

« سننزل معاً .. » .

واستسلمتُ للعربة التى انطلقتْ تخترق الشوارع بدكاكينا الصاحية وعرباتها وناسها السائرين ، وكأنهم خرجوا جميعهم . كثيرون يصطدمون ويعبرون بين العربات . كانت الأضواء تتسلل إلينا بين الحين والآخر ، واستطعتُ ان اجعل استلقاء البنت على حجرى أكثر راحة وأنا أهدهدها برفق . وبالرغم من ذلك ، فان وجه تلك الجالسة بجانبى يبدو أليفا ، وربما لا يحمل شراً . كانت ترتدى ثوباً بنفسجياً بزهور بيضاء بالغة الصغر ، محبوكاً على صدرها وجسمها المفرود ، وشعرها الكثيف يتطاير فأرى جانب وجهها الأبيض .

خرجت العربة أخيرا الى النيل ، ومددتُ يدى لأغلق النافذة ، بعد أن اندفع الهواء بارداً . عبرنا الجسر ، واستوتْ العربة على الضفة الأخرى ، ثم انحرفتْ لترتقى الممشى المواجه .

ها أنا مستسلم وعلىَّ أن أتصرف بثقة : أفتح الباب وأهبط ، ثم أرفع البنت على كتفى وأسندها بيدى اليسرى . تذكرت غياراتها ، فاستدرتُ بسرعة ، وانحنيت ، فى نفس اللحظة التى كانت تهم فيها بالقيام . اصطدم رأسانا بعنف ، وشممتُ رائحتها التى لم تكن تشبه رائحة البرتقال . رجعتُ للخلف وتمتمتُ ، وعيونها بلون البن الفاتح ، مرّتْ عليهما مسحة خفيفة من الألم والارتباك ، ثم ابتسمتْ لما وجدتنى عاجزا عن الكلام وهى تمد لى يديها

بالغيارات الملفوفة فى بعضها .

بعد أن حاسبتْ السائق ، دارتْ بجسمها وتقدمتْ خفيفة سريعة بحذاء أحمر من الكاوتشوك . واكتشفتُ كم هى بالغة النحول ، تمرق فى البهو ذى الأرضية الرخامية بلون النبيذ المحلى بنقط بيضاء متجاورة ، بجوار النافورة النحاسية على شكل قبة مثقوبة هنا وهناك ، يتدفق منها الماء صانعا أنصاف دوائر تعلو فوق بعضها البعض . ورفعتُ عينى ، ووجدتُ الأعمدة المتجاورة تصنع أقواسها المتتالية على الناحيتين ، وخلفها البناء القصير بلون النبيذ الفاتح ، وعلى اليمين واليسار ، انتصبَ مبنيان متجهمان عاليان ، تناثرتْ أضواء نوافذهما وشرفاتهما ، وفكرت فى أن هذا هو السبب ، فيما يبدو ، فى أن البناء الذى يتوسطهما يبدو قصيرا هكذا .

فكرتُ أيضا ، وأنا أستدير الى الخلف متلفتا هنا وهناك ، والنيل يبدو بعيداً بلون الليل الذى غطى الدنيا ، وثمة نخلات قليلة مائلة تتباعد على الضفة الأخرى ، بجوار المسلة القصيرة ، وقد انعكس الضوء على النصب القصير المقامة فوقه . وفى الناحية المواجهة ، أمكننى أن أميّز الجسر ، ومن خلفه مبنى مجلس قيادة الثورة القديم ، ثم الفضاء الرحيب .. فكرتُ اذن ان على أن أصدق — على أية حال — أننى نجوتُ من العجوز النحيل الذى يقود قروده المكبلة بالسلاسل ، مفرقعاً بسوطه ، متقدما عبر الدرجات ، من خلفه المرأتان تعبران بجوار الباب الذى كنت مختبئا وراءه . كيف عرف العجوز مكانى ؟ . أستطيع أن أقرر باطمئنان أن المرأتين فقدتُ أثرهما بعد أن عبرتُ الغورية ، ولكن كيف أجرؤ على الاشارة للإطمئنان ، بل وأن أقرر أيضا ، وهل نسيتُ أننى لم أهتد — حتى — الى دكان عم آدم البروجى .

تبينتُ حمّالين ينتشرون وراء خواجات وعرب ، يركضون بين الطريق الخارجى والباب الذى كانت تتهادى نحوه المرأة ذات الفستان البنفسجى .

كانوا يرتدون قفاطين حمراء قصيرة موشاة برسوم زخرفية معمولة بالقصب ، تحت سراويل حمراء أيضا ، وفوق رؤوسهم عمامات ضخمة حمراء يتوسطها ما بدا أنه شعار معا ، لم أقدر على تفسيره . ربما كان حروفا افرنجية أو رسما لمعبد أو نجمة .

هالتني المرأة المُتقدمة بثقة نحو الباب الزجاجي ، الذى انفتح من تلقاء نفسه . ولما دخلتْ ، بنفس الخطوات الواثقة ، أغلق الباب من خلفها ثانية .

« ديفلييه » (١)

الدليلة البيضاء

وقفت حائراً للحظات قليلة ، ثم حسمت كل ذلك ، واندفعتُ نحو الباب الزجاجى العريض ، وباغتنى انفتاحه بمجرد اقترابى ، فدلفتُ الى الداخل واستدرتُ بسرعة . لأراه يعود للإنغلاق ــ وحده ــ بنعومة قاسية .

شخصتُ ببصرى للرجلين الضخمين اللذين يشبهان حائطَيْن ، ويرتديان ملابس الحمَّالين الذين فى الخارج وهيئتهما تكاد تدفعنى للضحك : هذه القفاطين الحمراء والسراويل الحمراء المنفوشة والعمامات الضخمة التى يتوسطها ما بدا أنه شعار ما . تابعت سيرى فى البهو الرحيب النظيف ، وأنا استرق السمع لغمغمات متداخلة غريبة . وسرعان ما تبينتهم على الجانبين يجلسون ويقفون بين المقاعد والمناضد المتناثرة فى ضوء خفيف ، يحتسون شرابا ويدخنون : خواجات بيض بشعور شقراء .. رجال ونساء عجائز وآسيويون بملامح دقيقة وأفارقة ببشرات سوداء لامعة . كانوا يتهامسون ويتنادون ويتضاحكون ويتصايحون صانعين ضجة خفيفة لكنها منتشرة .

ووجدتنى أمشى بصعوبة وقدماى تغوصان فى البساط الأحمر القاتم الممتد فى البهو القليل الضوء . كان المشرب يتوسط البهو الذى تناثر حوله الغرباء وهم ما بين وقوف وجلوس ، وبينهم النسوة يتقصّعن رائحات غاديات بشورتات قصيرة وصدور عارية . بينى وبين نفسى ، كنت مندهشاً من أننى وحدى أشعر بكل هذه البرودة .

انتهى البهو بسلم فنزلت ، وطالعت الغرباء واقفين على البسطة حتى جاء المصعد فهجموا عليه . كان عليّ أن آخذ حذرى ، وأنتبه الى أننى أهبط الآن ، والخواجات والناس يهبطون . أنا لم أصعد ـــ حين دخلت ـــ أى درجات ، أليس كذلك ؟ .. وها أنا أهبط الآن الى باطن الأرض . ابتسمتُ لنفسى ، لمَّا تذكرت أننى نجوت منذ لحظات قليلة من خطر محقق ، وقلت أنه لا داعى للعجلة ، وسوف أتبين رويدا حقيقة الأمر . مضيت أكمل السلم ، الى أن انتهيت الى الطابق التالى الذى كاد أن يكون مظلما . ولما واجهت دهليزا ، إنحرفت معه مرة ، ثم مرة ، حتى استقام سَيْرِى .

لم يكن الممر الذى أخطو فوق سجادته ضيقا ، وكنتُ ألمح حجرات على اليمين أبوابها الخشبية المدهونة نصف مفتوحة ، وأشباح ناس يصطفون على مقاعد فى صدر الحجرات التى تشبه القاعات . وحين انتهى الممر ، عرجت الى اليسار ، وواجهت بهوا فسيحا يمتد دون أن أدرك نهايته .

قلتُ لنفسى : هذا فندق ولا شك ، وكل هؤلاء الأغراب ما هم الا سائحون . ولعلّ وجودى بينهم يضمن لى أن أظل مختفيا عمن يتعقبونى ، لا سيما وأننى قد نجوتُ من العجوز ذى السوط . أكاد أشعر بلسعاته الواخزة القاسية ، وعيونه المنذرة الثقيلة .

واذا كنتُ قد فقدتُ دليلتى البيضاء ـــ أجل لأسمِّها دليلتى البيضاء ، تلك التى اختفتْ مثل نسمة لم أكد آنس اليها حتى اختفتْ ، مثلما اختفت الخمرية ذات الشفتين الساحرتين والفم المتلالىء ، ومثلما فقدتُ حجرتى الأولى هناك عندما غادرتها بحماقة ، ثم الْتَفتُ الى البنت التى بدا استيقاظها وتلفتها المفاجىء قبل أن تفتح عيونها . نعم ياستى ، قلت لها ، نعم بحماقة مازلنا ـــ أنا وأنت ـــ ندفع ثمنها الى الآن .

نعم يا ستى .. أنا السبب . واحتضنتها على كتفى عارفاً أننى اذا كنت

قد فقدت دليلتى البيضاء ، فإن مجرد تخفيي المؤقت سوف يمنحنى فرصة للتفكير . ذلك هو ما أحتاج اليه بالفعل . فرصة للتفكير والتروى وإعمال العقل والتدبير فيما يتعين عليَّ أن أقوم به . لقد طال تخبُّطى وجنوحى وابتعادى ، كما أن البنت إزداد شحوبها وباتت أقل حيوية وفقدت قدرتها السابقة على الإهتزاز والتلفُّتْ ودفع الأعضاء بِعَفْرتَة .

غير أنى ابتعدت عن طريقهن ، لما وجدتهن يتقدمن وراء بعضهن ، يحملن حقائب ثقيلة متشابهة . الى اليمين ، كانت نوافذ عالية واسعة مقفلة تغطى الجدران ، وزجاجها اتخذ أشكالا من الدوائر وأنصاف الدوائر والمثلثات والنجوم المتداخلة الملونة . تحتها اصطفت أرائك ومقاعد عتيقة فخمة ، تختلف طرزها وألوانها بين نافذة وأخرى . والى اليسار ، كان ثمة قاعات أخرى مثل تلك التى خلفتها فى الممر .

تركت نفسى أتابع النسوة اللاتى كانت هيئتهن تبعث على الجنون . هذا القوام اللدن الشفيف يتثنَّى تحت ثقل الحقائب ، وتلك الوجوه ذات التقاطيع الحادة الشاحبة : سمراوات وبيضاوات وخمريات ، بل وها هى زنجية جسمها فتى متوثب داخل فستان أصفر نارى ضيق ، بجوارها من تشبهها كأنهما توأم : الطول والقوام والتَّثَنِّى والجسم الملموم بصعوبة ونعومة داخل الفستان . ها هن يخطرن مقتحمات ، يصدرن حفيفا ويرفعن وجوههن وتهتز رؤوسهن وهن يتقدمن على مهل بالزهور المشبوكة فى شعورهن .

وسرعان ما غِبْنَ ، فقدتهن خلف أحد الأبواب . فتقدمتُ ، وقد هاجمنى البرد فجأة . عندئذ تذكرتُ أنه ما كان لى أن أنسى سترتى فى مثل هذا الجو . ولما وصلتُ الى منتصف البهو تقريبا ، لم أصدق نفسى وأنا أشاهد دليلتى البيضاء واقفة مثل وردة بين جمع ضخم من الرجال والنساء الذين ارتفع عجيجهم ، وهم يحتسون الشاى من فناجين بأيديهم . كانوا متكأكئين على

المنضدة المستطيلة التي يقف أمامها رجلان يرتديان بدلتين سموكن بالبابيون . كانا يناولان الناس قطع الكيك والجاتوه ومختلف أنواع الحلوى المرصوصة فى أطباق ضخمة تملأ المنضدة .

عيناى أمسكتا بدليلتى البيضاء الواقفة مع جمع من النسوة والرجال ، مستغرقة فى حديث جعلها تهز يديها الاثنتين وتدفع برأسها هنا وهناك ، حتى التقتنى ، فابتسمتْ ، وابتسمتُ . وجدتنى أتقدم نحوها : صافية بوجهها الأليف وجسمها البالغ النحول ، تنتظرنى بصبر وأنا أشق الجموع نحوها .

مضيت أجول ببصرى وأروح وأجىء بين من يقفون مع دليلتى . ومالبثتُ إلا قليلا ، حتى شعرتُ بدوار خفيف ، وأنا أتعرفُ على بعضهم . هذا الولد وهذه البنت الواقفةُ بجواره أعرفهما جيدا ، بل وزاملت الولد فى سجن طُرّه . أما هذه المرأة الممتلئة قليلا ، فقضت معى شهورا فى الشقة التى كنا نقوم بتأمينها للاجتماعات ، ونستخدمها مؤقتا لتخزين منشوراتنا .

وجوه ووجوه أليفة مرهقة تعرفت عليها على نحو ما . حاولت أن أتذكر أسماءهم ، بينما رحت أبتسم لهم ، وأنا لاأصدق أنهم يبادلوننى الابتسام . جعلت الأسماء تقفز الى ذهنى فجأة ، وحين أهُمُّ بالإمساك بها تراوغنى فأعاود الكرّة ، بل وأرفع صوتى وأنطق ما يخطر على بالى من الأسماء .

كان الضجر والمراوغة والجهد الذى أبذله فى محاولاتى .. كان كل ذلك يجنح بى نحو الاستسلام لعودتى مرة ثانية لتلك الدائرة المحكمة القابضة . وهتفتُ لنفسى قائلاً ها هم أصدقاء وزملاء يعرفوننى أخيراً . وليس مُهِمًّا أن أعرف الأسماء على الفور . ويكفى فقط أن كلاًّ منا يعرف الآخر ، وعلى ذلك فقد داخلنى نوع من اليقين بأننى قد نجوت أنا والبنت .

ليس هناك أى داع للقلق والخوف ، إذ يمكننى أن أنتحى بأحدهم جانبا

وأحكى له ماجرى ، وأترك له أن يتصرف كما يحلو له ، بل وأن يحمل طفلتى عنى بعد أن تسلل جسمى منى ، وأمسكت بى رغبة عنيفة فى الجلوس على أحد هذه المقاعد الوثيرة والاستغراق فى النوم . على أننى لاحظتُ أنهم قد تجمعوا وحدهم ، بعيداً عمَّن يشربون الشاى ويتناولون الحلوى ، وصنعوا لأنفسهم ما يشبه الركن الململوم ، بوجوههم المرهقة المتشابهة ، وبتلك الطريقة المتوفزة فى دفع الأيدى والتدخين . أما الآخرون ، فسرعان ما اكتشفت أنهم من أمم مختلفة : شرقيون بأجسامهم السمينة المدكوكة وغربيون فارعون عيونهم ملونة . سمر وسود وبيض وحمر . صبيان وشيوخ ورجال ونساء يتحدثون الى بعضهم وهم يبتسمون ابتسامات واسعة حميمة .

ما الأمر اذن ؟ . هذا فندق ، وتلك قاعات خلفتها ورائى ، وهؤلاء قوم لا أعرفهم ، واولئك قوم أعرفهم .

خطر لى أن أسأل دليلتى البيضاء التى قادتنى من قبل ، وفوجئت بالبنت التى استيقظت باكية ، فجعلت أهدهدها ، غير أن بكاءها كان يعلو بالرغم من ذلك ، وجسمها يتشنج متصلبا على ذراعى . رفعت عينى اليهم ، لكنهم كانوا مستغرقين تماما فى النقاش وهَزّ الأيدى ، وعليهم سيماء الجدية البالغة . كان كافياً أن اقترب منهم ، ولسوف أنخرط على الفور فى النقاش الحامى بمجرد دنوِّى .

ودليلتى البيضاء .. أين هى ؟ . ولماذا تصر على دليلتك البيضاء ؟ . مادمت تعرف بعضهم ، فلا مانع من الانفراد بأحدهم وتسر له بما تريد .

تحول البكاء الى صراخ بالفعل . صراخ الجائع المبلول المجنون . واحمرَّ وجهها وانعقد جبينها ، وأنا أضاعفُ من هزاتى ، بالرغم من يقينى أن ذلك لن يجدى . اضطررتُ للسير هنا وهناك ، أبحثُ عنها بين من يشربون الشاى ، وفيما وراء المنضدة الطويلة المصفوفة عليها أطباق الحلوى وأدوات الشاى . هنا

فى البهو ، وفى الدهليز ، حتى طلعتْ فجأة خفيفة تكاد تغيب مع الهواء . هرعتُ اليها ، والبنت تجأر بالصراخ . قلت :

« البنت جائعة .. ولن تسكت مهما عملت .. » .

أومأتْ نحوى ، ومدتْ يديها تأخذ البنت . انقلب صراخ البنت الى هياج . بعثرتْ بطانيتها وبانتُ أطراف قدميها من بين اللفائف ، والبيضاء تحوطها وتربت عليها دون فائدة ، فهمست متلجلجة :

« نشوف واحدة تُرضعه .. لأن .. أنا .. يعنى بالنسبة لى .. » .

نامت رموشها الثقيلة لثوان قليلة ، واحمر وجهها وهى تتلفت هاربة منى ثم تابعت :

« آه .. أظن سناء عندها عَيِلٌ رضيع .. إسمع .. تعال معى .. تعال .. » .

كنت أريد أن أقول لها أنها بنت وليست ولدا ، وكنت أريد أن أسألها عن إسم سناء كاملاً ، أو اسمها هى ، أو أى اسم ، حتى أستطيع مواجهة هذا الدوار الغريب . رحتُ أجرى خلفها ، حريصا على ألا تغيب عنى ، وهى تمرق منسابة هنا وهناك ، حتى توقفتْ أمام امرأة قصيرة ذات شعر قصير مثل شعر وتسريحة صبى ، غير أنها ترتدى فستانا ضيقا من التويد الأزرق يصل الى ركبتيها بصعوبة . انحنتْ البيضاء على أذنها ، وتقدمتُ نحوهما ، فمدتْ عيونها وواجهتنى باستدارة وجهها الذى يشبه وجه صبى أيضا . أما جسمها الصغير فكان جميلا بالفعل . جسم انسانى تماما وخال من المشاكل ، ووجه صبى بلا مساحيق ، ويدان تمتدان تأخذان البنت بحنو ضاحك رقيق . خطوت نحوها قبل أن تستدير ، وناولتها لفائف البنت التى كنت ما أزال محتفظا بها تحت إبطى ، وحاولت الابتسام قائلا :

« أصلها مبلولة .. » .

قالت ضاحكة وهى تبص فى وجهها وتلاعبها :

« وبنوته .. وغجرية .. وصوتك عال .. عيب .. الصوت العالى للبنات عيب .. عيـ .... ب .. عيـ ..... ب .. ما اسمها ؟ .. انت يا وحشه .. ما اسمك ؟ .. » .

سكتُّ حائرا متلفتاً حولى ، متيقناً من هذا الصوت الذى أعرفه جيدا . هذا الصوت أعرفه ولا شك ، وتلك الرنَّة الصبيانية المدللة التى تستخدم صيغة المذكَّر دوماً . أسرعتُ أنا قائلا :

« أين ترضعينها اذن ؟ .. » .

أشارت برأسها وهى تضحك ، ثم مضت ، وأنا خلفها وبعد خطوات قليلة انحرفتْ ، فانحرفتُ لأجدها واقفة امام باب مبنى مغلق فوقه علق رسم صغير باللون الأسود لهيئة امرأة بلا وجه . هزَّتْ رأسها مرة ثانية حين اقتربتُ قائلة :

« انتظرنى هنا .. سأدخل التواليت مع البنوته .. » .

تراجعتُ للخلف ، وعبرتُ نحو طاقم صغير يتكون من ستة مقاعد « فوتيه » وكنبه واحدة ضخمة من القطيفة البنية الداكنة ، أسفل النوافذ الشاهقة . عن يمينى ويسارى ، أرى القاعات متتابعة بمداخلها المضيئة ، وأنا أكابد فى استعادة الأسماء . الآن .. يقينى الأخير الثابت هو هؤلاء الذين كان بعضهم زملاء لى . يقينى الأخير الثابت هم : القادرون على فك كل هذه الألغاز والمتاهات التى ما تنفك تتكاثف منذ خلفت حجرتى انا والبنت .

ومن مكانى ذاك ، كنت أشرف ــ من بعيد ــ على الجمع المنخرط فى

الحديث والنقاش ، ودليلتى البيضاء واقفة وظهرها ناحيتى ، أما الولد ذو الشعر الأجعد والبشرة المحروقة بلون القهوة ، فلم يكن ممكنا لى أن أخطئه مطلقاً ، لأنه أول من استقبلنى ضاحكاً فى إحدى زنازين عنبر التأديب فى سجن طرة .

فى تلك الحبسة التى استمرت عاما واحدا قبل اغتيال السادات ، حين حملوكما فَرِجيْنَ أنت وعزه ، فسوف تستريحان أخيرا من ذلك المنفى البعيد ، الذى اضطررتما اليه فى أعقاب إنتفاضة الخبز . مخفوران فى لورى ضخم يضم أكثر من أربعين جنديا ، كلهم قابضون بنادق ومتعلمون الحرب ، يرأسهم رائد قال لنا أنه يسارى ويحب جمال عبد الناصر ، وظل طوال الرحلة التى امتدت أربع عشرة ساعة متواصلة يحاول استدراجكما للكلام ، بعد أن فشل عقيد وضباط مباحث أمن الدولة فى المركز الرئيسى ، حتى قلت له فى بنى سويف ، المحطة الأولى لكما منذ بداية الرحيل ، وقد هبطتما حالمين بكوبَيْن من الشاى فى الكازينو المفتوح على النيل فى برد يناير القارس . قلت له ويداك مقيدتان بقيد اعتذر لك وهو يقيدك به قبل نزولكما : اسمع يا حضرة الرائد .. أنا لا أظن أنك من المباحث ، مادمت تحب جمال عبد الناصر جداً . وفى المقهى الذى أجلس فيه مع أصدقائى فى القاهرة ، جاء أحد المخبرين ، ويبدو أنه تعب من الجلوس كل يوم بجوارنا يستمع لنا دون فائدة ، فانتحى بأحدنا جانبا وهمس له : لو سمحت يا أستاذ .. سيادتك فى تنظيم سرى ؟ .. انفجرت فى الضحك وانا انظر له محاولا جره للضحك . لكنه كان ينظر لكما ــ انت وعزه ــ وانتما تقهقهان مندهشا . عدت تقول له : لا مؤاخذة يا كابتن .. الحكاية اننا نقلنا من وظائفنا فى القاهرة الى الواحات عقب افلاتنا من القبض

علينا فى مظاهرات الطعام ، ويبدو أن المسألة لا تعدو انتقاما ، لأن ثمة كشوف معدة سلفا .. يعنى تصفية حسابات بيننا ، فلا تتعب نفسك فى مسألة لست طرفا فيها . هل تصدق أن ما أفكر فيه بشدة الآن ؛ هو تركى للديك الصغير وحيدا ، بعد أن تبقى لنا من عشرة كتاكيت اشتريناها بعد وصولنا الواحات ، مع أرنب واحد ، كنت استيقظ كل ليلة على الجلبة الفظيعة التى تتسبب عن معاركهما ، فأجد الديك مجروحا من جراء مشاكسته للأرنب . افتح الباب ، وأخرجه الى الصالة بعيدا عن الأرنب الظالم الغشيم . فوجئت ـــ انت ـــ بعزه تلتفت له فى جدية قائلة : نريد منك وعدا يا حضرة الضابط بالتدخل فى الأمر والفصل بينهما بعد عودتك بالسلامة . ولم يكف الرجل طوال الطريق وحتى سجن طره عن محاولة اقناعك بالبوح له بالأسرار ، حتى سئمت اللعبة تماما ، ومضيت تبحث عن كلام تقوله لعزه عند وداعكما . وكان الرائد قد فاجأكما واللورى يدخل منطقة طره ، بأنه سوف يسلمك للسجن وحدك ، ويذهب بعزه الى مكان آخر رفض أن يحدده لكما . لحظتها شعرت بالبرد وتسلل لك الخوف والرهبة ، وتعجلت الوصول الى السجن ، والتخلص مرة واحدة وبسرعة من كل شىء .

باغتتنى بوقوفها امامى مباشرة ، وانا مستلق على مقعدى ، أرنو اليها دون أن استطيع تحديدها ، بشعرها القصير وجيدها العارى . على ذراعها الطفلة ، وجسمها الصبى لا يهدأ ولايستقر ، حتى نهضت وحملت طفلتى عنها مبتسما ، وقد فتننى وجهها العارى من الألوان تحت شعرها القصير . رفعت ذراعى الخالية وقبضت على كتفها القريب ، وجعلت أضغط بأصابعى مانعا نفسى من احتضانها . نظرتها تحمل لى نوعا من الحنو الهادىء المتواطىء ، بينما

عيونها البنية دفعت بى لتذكرها فى ومضة قصيرة لم تلبث أن اختفت . واذا كان ذلك كذلك ، أليس من الغريب ألا تعرفنى هى ؟ . فكرت أن أشرح لها الأمر ، غير أنها بادرتنى قائلة وهى تقترب منى :

« البنت شقية جدا .. كانت جائعة مثل فيل .. وها هى قد أكلت نصيب العفريت سيف الذى ينتظرنى فى البيت .. » .

ابتسمت مرة أخرى ، ومضت مسرعة وأنا خلفها . رفعت صوتى وأنا أحاول اللحاق بها :

« سناء .. يا سناء .. » .

توقفت عن الصياح مبهوتا من اننى اناديها باسمها ، لكننى تذكرت أن اسمها التقطته منذ قليل من دليلتى البيضاء .

كان البهو امام القاعة خاليا ، والتفتت نحوى ، ثم أومأت ضاحكة تقريبا ، قبل أن تدلف خلف الباب .

دخلت وراءها ، ورأيت القاعة الكبيرة ممتلئة بالمقاعد الجلدية المصفوفة على الجانبين ، وبينهما مكان خال مفروش بسجادة داكنة . وفى الصدر كان ثمة مسرح صغير مضىء ومرتفع عن الأرض ، عليه منضبدة يجلس اليها الناس ، وقد ظهرت من خلفهم لافتة ضخمة مكتوبة باللغات العربية والأفرنجية . وقلت لنفسى أن المسألة كلها باتت فى غاية السهولة الآن ، فليس هناك اكثر من قراءة هذه اللافتة لأعرف كل شىء واستريح .

كانت البنت مستكينة فى حضنى ، وانا أبحث بعينى عن سناء ، وبالرغم من امتلاء القاعة ، والضوء الخفيف المنتشر ، الا اننى لم استطع أن أحدد بالضبط مكان زملائى الذين قابلتهم منذ لحظات عند الباب . وتلبسنى ذلك

الاحساس المسيطر الذى أحسه دوما ، عندما أدخل وحدى الأماكن الواسعة الممتلئة بالناس ، اذ يعتريني ارتباك وتوتر يجعلني أعامل الآخرين بخشونة واستهتار متعمدين .

هذه الصفوف الخلفية خالية . تقدمت نحو المقعد القريب ، فوجدت فوقه آلة غريبة . انتقلت الى مقعد آخر فى صف آخر ، فوجدت نفس الآلة . فما كان منى الا أن درت بعيني ، فاكتشفت ان أغلب الناس يضعونها على رؤوسهم ويتدلى ذراعاها حتى آذانهم . أعطيت الطفلة لرجل أسود يجلس فى أول صف صادفني وابتسمت له ، ثم ثبت هذه الآلة على رأسى كيفما اتفق ، وتناولت طفلتى وجلست .

كان الناس من حولى يرتدون آلاتهم على رؤوسهم ويتطلعون للمسرح منصتين ومشغولين ، حيث كان ثمة رجل فى صدر المنضدة فوق المسرح يتكلم مقربا الميكروفون من فمه . ولمع خاطر فى ذهنى ، وسرعان ما ثبت الآلة على رأسى وعدلت البنت على حجرى ، ومضيت أغير من وضع تلك الآلة وأقلبها . كان الرجل يتكلم بلغة أوروبية لم أستطع أن أميّزها . لم تكن انجليزية ولا فرنسية ، وهما اللغتان اللتان بوسعى أن أحددهما .

الآلة على رأسى تصدر وشيشا خفيفا وصوت الرجل على المسرح يتعالى دون أن أفهم شيئا . تركت نفسى أتطلع الى القاعة والناس الجالسين ، وبعد لأى أمكنني أن أرى زملائى يتجمعون هناك فى الطرف الآخر . أما الرجال والمرأتان الذين يحتلون المسرح ، فقد تبينت ملامحهم بشكل أفضل ، بعد أن استرحت فى جلستى ، وأقلعت عن محاولة استخدام الآلة . كان البعض منهم ملامحه عربية ، بينما البعض الآخر له ملامح أوربية ، وقد تخلى منهم من تخلى عن آلته ووضعها قدامه على المنضدة ، وارتدى الآخرون آلاتهم على رؤوسهم .

وكانت اللافتة البعيدة خلفهم مكتوبة بأكثر من لغة ، وبألوان مختلفة ،

وخطوط متغايرة . رحت أدقق وأدقق ، حتى فككت طلاسم كلمات مكتوبة بالعربية : انتفاضة الشعب الفلسطينى . غمرتنى البهجة وامتلأت وأخذت أتحرك على مقعدى وأتلفت واحتضن البنت وأتطلع للرجل الذى يتكلم وأصفق مع الناس وأمنع نفسي من النهوض وأشعر بقلبي يدق وألهث وأعود للتلفت . ثم اننى رحت أستعد للانتقال الى زملائى فى الناحية الأخرى . بينهم سوف أفهم مايجرى أمامى ، وسوف نتصرف معا ونتخذ موقفا نتفق عليه جميعا ، مادام الأمر يتعلق بهذا الجمع الضخم من الأمم ، الذين جاءوا تحت لافتة انتفاضة الشعب الفلسطينى .

مضى الوقت بطيئا ، والناس على المنضدة يتبادلون الميكروفات ، حتى تكلمت المرأة الفلسطينية التى كانت ترتدى (كوفية) ، بألوان العلم الفلسطينى الثلاثة : الأسود والأحمر والأخضر . كانت تتكلم بالعربية ، فأصغيت منحياً الذراعين المتدليين من الآلة عن أذنى . تحدثتْ عن انتفاضة للصبية الفلسطينيين تجرى فى الأرض المحتلة . متى ؟ . وكيف ؟ . قالت ان الانتفاضة تدخل شهرها العاشر ، وأن الأطفال يواجهون آلة الحرب الاسرائيلية بحجارتهم .

وجدتنى انطلق مصفقا هاتفا غير عابىء بالوجوه العابسة التى التفتت كلها نحوى . ثم رحت أتطلع الى من أعرفهم من زملائى ، لكن الجميع كانوا فيما يبدو يأخذون الأمر على نحو ما ، ليس من السهل أن أكتشفه ، وربما كان هناك اتفاق على أنه فى مثل هذه الحالات ، لا يقاطع واحد ، واحداً آخر ، كان ثمة نظام يسير الجميع وفقه : أولاد العرب والخواجات والأفريقيون والآسيويون . بل اننى سرعان ما أحسست بما يشبه الخزى المختلط بالخجل ، بالرغم من فرحتى حين تخيلت عشرات بل مئات وآلاف من الأولاد والبنات الفلسطينيين الذين يحملون حجارتهم وأعلامهم وعصيانهم .

حرقت علم اسرائيل أنت أيضا فى سجن طره . فى الصباح المبكر تفتح زنازين العنبر ، وتشاهد جيوش العصافير الملتاثة المتوحشة ، وهى تنقض لتلتهم كل شىء حتى الذباب . تخشى هذه العصافير التى اكتسبت طبائع جديدة : تصرخ ولا تزقزق . تنقض ولا تطير . تلتهم كل ماتصادفه فى طريقها . لم تكن تتيح لك الفرصة لترى جسومها السوداء الصغيرة المنقضة فى جماعات عبر المنور ، وعبر الأدوار الثلاثة التى يضمها المبنى ، حيث تتابع جماعات المساجين الجنائيين الهابطين فى غبشة الصبح من الدورين العلويين للعمل فى المزرعة القريبة . فلاحون وصعايدة يحزمون سراويلهم الواسعة القصيرة بحبال ، ويضمون ستراتهم الممزقة فى الصقيع ، ثم يصطفون حتى يتمم عليهم العساكر قبل الظهر ، كان العلمان الفلسطينى والاسرائيلى قد تم تصنيعهما فى احدى الزنازين ، وقررت لجنة الحياة العامة عقد الاحتفال فى الفناء ، فمنعت الادارة المساجين الجنائيين من الخروج وأغلقت عليهم الزنازين ، لكنهم تسلقوا النوافذ يتفرجون علينا . مر عام على معاهدة كامب ديفيد ، والسفارة الصهيونية تحتل الأدوار العليا من البناية الشاهقة المطلة على النيل ، وأنت فى السجن الذى تزوره شتاء كل عام منذ بضعة سنوات . وبالقرب من الجدار ، حيث تلاصقتم فى البقعة المشمسة ، بدأ احتفالكم باحراق العلم الاسرائيلى ورفع العلم الفلسطينى . ألقيت البيانات وغنيتم وصرفت لجنة الحياة العامة شايا اضافيا وسجائر اضافية ووقف البعض يهتف ويرددون ، ولما ازداد الهتاف رحت تجول بعينيك بينهم ، ولم تتمالك نفسك من الابتسام فقد كنتم داخل السجن بالفعل وهذا هو السور الذى يفصل هذا المبنى عن المبانى الأخرى ، بجواره بوابة مغلقة ، وقبله بوابة للعنبر وبوابة للزنزانة

وبعده بوابة وبوابة وبوابات حتى بوابة السجن الشاهقة الرئيسية .

رحت أصفق وأصفق ، واستيقظت البنت من اهتزازى ، واستمررت فى التصفيق وجسمى يرتجف رغما عنى . وكيف استطاعوا أن يحجبوا عنى طوال هذه الشهور ما كان كافيا أن يمنحنى كل هذا الفرح والأمان . فكرت فى أن أنهض ، واتوجه الى المنصة ، لأشرح لهذا الجمع ، أساليب جديدة بدأوا فى اتباعها . أساليب بسيطة ومبتكرة ، لكنها أكثر تخريبا وتشويها من كل ما اتبعوه معنا من قبل . يكفيهم فقط أن يحجبوا عنا مايتراءى لهم . يقفلون أفواههم وصحفهم واذاعاتهم وتليفزيوناتهم ، ويتركوننا نجرى قطعانا تلو قطعان نسعى باحثين متزاحمين متدافعين دون جدوى .

تململت البنت فأخذتها فى حضنى ، ومضيت أربت عليها برفق ، حتى نهض الناس من حولى ، فعرفت أنه آن أوان الرحيل . وفيم كنتم تجتمعون اذن ؟ . ولم توافدتم من كل بقاع الأرض الى هذه القاعة اذن ؟ . هل أترك مقعدى وأركض نحو المنصة لأمسك بالميكرفون لأهتف وأكشف وأجأر بالصراخ ؟ . ثم أين أصدقائى وزملائى ودليلتى البيضاء وسناء والبنت التى رافقتها شهورا لتأمين احدى اللجان ، والولد الذى زاملته شهورا أخرى فى سجن طرة ، والولد الآخر والآخر .. الى أين تتوجهون ، وكيف تتركون القاعة وتمضون ؟ . وجدت صعوبة فى النهوض . حاولت ، غير أن الدوار كان يغلبنى على الفور : تغيم الرؤية وأسمع صفيرا عاليا يختلط بأزيز خادش لسوط بعيد وصراخ قردة وصلصلة ، فأسارع بالجلوس .

بعد برهة ، تمكنت من الوقوف بصعوبة ، وأحسست بأطرافى ثقيلة وأنا أخطو الى الخارج . وجدتنى فى ممر مظلم ، لكن ثمة ضوءا بعيدا أكاد أتبينه ، فأسرعت حتى عثرت على دهليز عن يمينى ، فانحرفت نحوه . كان هذا الدهليز

أقل اظلاما ، وأمكنني أن أميز أصواتا بعيدة ، وقلت لابد أنني قد ضللت طريقي ، وربما كان هناك باب لم أنتبه اليه قادني الى هذا الدهليز الذى أفضى بي الى ممر آخر يشبه النفق ، وأحسست بالبرد لاسعا نافذا . هواء ثلجي موجع باهظ الثقل . يا الهي .. انه ثلج ابيض بالفعل . ثلج أبيض يضيء النفق .

« ديفيليه » (٢)

جيش الهيفاوات

جاصرتنى الرائحة ودمعت عيناى ، وأنا أحاول الابتعاد بوجهى . هل عدت مرة ثانية الى تلك الحجرة المزدحمة الضاجة بنا وبعشرات الجنائيين الذين تم اعتقالهم عقب الاغتيال . حين جاءوا قبل الفجر ، اصطحبونا ـــ عزه وأنا ـــ ثم داروا بالعربة على البيوت يعتقلون ويعبئون السيارة اللورى برجال وسيدات وأولاد وبنات ، وأفرغوا حمولتهم من الرجال فى قسم السيدة زينب ، ومضوا بالعربة وفى الليل كان الجنائيون يتبادلون الحديث مع امرأة وحيدة فى حجز النساء ، الذى يفصلنا عنه نافذة صغيرة بالقرب من السقف ، وكانوا يطلبون منها أن تغنى ، وهى تشترط عليهم أن تحصل على السجائر أولا . عندئذ ، كان أحدهم يقفز فوق آخر ، ويمد يده عبر الشريط الحديدى الضيق قرب السقف ويناولها سيجارة واحدة . تغنى بعدها بصوت مبحوح شجى : أول مرة تحب ياقلبى .. قلنا حانبنى وآدى احنا بنينا السد العالى . كان صوتها ممتلئا مثقلا رخيما .. وبدا كأن هذه الأغانى التى بدأت بها ، ليست الا تدريبات ، قبل أن تنطلق موجوعة مرضوضة مبتهجة بمواويلها الصعيدية التى سيطرت بها علينا تماما . وانهالت السجائر عليها ، والولد الذى يناولها يصيح فيها قائلا ، وقد تسلق زميله :

هجامون ونشالون ولصوص صغار ومتسولون وسريحة ، أخبرونا أن حالهم واقف بعد اغتيال السادات لأنهم اعتقلوا طوارىء ، وأصبح واجبا عليهم أن يناموا يوميا فى الحجز ، وفى الصباح يكنسون ويمسحون القسم قبل أن يسمح لهم بالخروج ، ليعودوا فى أول الليل . طوال الوقت كانت ثمة رائحة ، نعم ، هى تلك التى تحاصرنى الآن . تنتشر وتملأ الأرجاء وتدمع عيناى . وقبل أن يحين موعد خروجهم ، كانوا قد صنعوا شايا على « توتو » أعدوه على عجل . احتسينا معهم الشاى من الكوز الذى دار علينا ، حتى جاء العسكرى وفتح الباب الذى يفصلنا عن حجز النساء . عندئذ ، تدفقت الرائحة الملتاثة وانداحت عنيفة نافذة لايمكن احتمالها ، وخرجت فرنسا عوراء بوجه ممزق بعشرات الطعنات القديمة . سمينة ترتدى جلبابا أسود ومنديل رأس أسود أيضا ، تحمل بطانية مطبقة تضمها الى فخذها ، ورحت أنا استعيد صوتها الذى صاحبنا طوال الليل تغنى مواويلها البعيدة . أما هى ، فقد لوحت لنا قبل أن يغلق العسكرى باب الحجز خلفها ، وخلف الجنائيين الخارجين معها ، وصاحت ، مرة أخرى ، بصوتها الشجى المبحوح : ولما قرّب ميعاد حبيبى .. ورحت أقابله .. ولم أستطع مقاومة رغبتى وخطوت عبر الباب المفتوح . كانت الحجرة التى قضت فيها فرنسا ليلتها خالية تماما ، غير أن الرائحة المجنونة أجبرتنى على النظر هنا وهناك ، حتى اكتشفت انها رائحة بول تجمع فى بحيرات صغيرة بالقرب من الأركان . درت على أعقابى ووليت هاربا ومغلقا عينى .

ألقيت بالبنت على كتفى ، وانطلقت عازما على مفارقة هذا الدهليز الثلجى . رحت أجرى وأجرى ، والرائحة تكاد تقتلنى ، وقد أغمضت عينى ، وأنا اضم البنت بقوة ، متخلصا على مهل من قوام ولزوجة الرائحة المحبوسة بالقرب من الجدران ، وباذلا جهدى فى الاستمساك بما بقى لى من قدرة على التحكم فى حركتى ، ومدركا أن هذا سوف يعنى أن أفقد ـــ مرة أخرى ـــ كل الذين تعرفت عليهم : سناء ودليلتى البيضاء وتلك التى شاركتها شهورا فى الشقة الضيقة الرطبة ، والآخرون الذين زاملنى بعضهم فى السجون . وبعد كل ماجرى ، لم أتعلم بعد ، أنه كان متعينا على أن أقتنص الفرصة وأخبرهم على الفور ، بل أن أندس وسطهم ، وأجعلهم يحوطوننى من كل جانب . وغامت الدنيا امامى لما عاودت فتح عينى ، وقبل أن أنكفىء ، وجدتنى أنحرف الى دهليز أقل ضوءا وربما أكثر دفئا ، بعد أن شارفت الرائحة المحبوسة على الاختفاء .

توقفت قليلا عندما فاجأنى اللحن الخفيف السريع . كان لحنا سطحيا شائعا لفيلم فرنسى حاولت أن أتذكره ، لكنه رائق وصاف ، وأنا أستعيد أنفاسى ، وأنزل البنت بين ذراعى ، ثم أسير الهوينى ، حتى وصلت الى الباب المموارب .

مددت بصرى ، فرأيت المسرح المضىء فوقه النسوة ، والقاعة ممتلئة بالمناضد المفروشة ، حولها جلس جمع جلهم من النساء يتطلعون الى المسرح .

خطوت الى الداخل لما رمقتهما . لو لم تكن تلكما المرأتان الزنجيتان بقوامهما النحيل المشدود مثل الخيزران ، لما أمكننى أن أتذكر جيش الهيفاوات المائلات من ثقل الحقائب ، ذوات الوجوه الرائقة الشاحبة من غير طلاء ، والزهور المشبوكة فى شعرهن ، اللائى صادفتهن حال دخولى .

تأودت المرأتان تحت ضوء يتابعهما وهما تخطران من بداية المسرح حتى

نهايته ، وتلقيان بالبسمة الواسعة الكاشفة عن أسنان شديدة البياض ، مرتديتان فستانين طويلين لامعين ، لكنهما كاشفان عن النحور ويحيطان بالنهود البازعة من أعلى . وقبل انسحابهما المباغت ، خلعت كل منهما ما يشبه شالا صغيرا يضوى بحبات الترتر الملونة فى ايقاع واحد ، قبل أن ترسلا بالبسمة الأخيرة مقرونة بما يشبه وعدا غامضا .

تغير اللحن وانشقت الأرض عن امرأتين اخريين ضاحكتين مبتهجتين ، بثوبين متشابهين احدهما أصفر نارى والآخر أخضر زاعق ، محليان بشرائط وكشكشات .

تخطران ، تستديران ، ترميان بنظرات باسمة صريحة ، بوجهيهما المصبوغين . وما تلبثان أن تتقصعا رافعات أذرعتهن والزهور المشبوكة فى شعرهن تتأرجح ، رغم هذه الرقة الناعمة الرشيقة للاستدارة واللفتة والبسمة المرسومة المضبوطة لهما معا .

حين انصرفن هدأ اللحن ، وخفتت الاضاءة قليلا على المسرح ، بينما علا لغط القاعدين . وشفت الناس من حولى على المناضد يدخنون ويشربون من أكواب طويلة . جيوبى تحسستها باحثا عن سجائر ، واستندت الى الباب الموارب ، حيث اصطدمت أصابعى بالتميمة التى كنت قد عثرت عليها قبل أن ننجو — أنا والبنت — من العجوز والقردة . وفكرت فى أنه ليس ثمة مايدعو للتعجب . فأنا — أغلب الظن — مازلت فى نفس الفندق . وعلىّ أن أجد مخرجا مناسبا ، أتسلل منه لألحق بزملائى ، قبل أن تزداد الأمور سوءا لأى سبب من الأسباب وبالرغم من أن البنت مستكينة ، بعد أن سكن جوعها وغيرت هدومها ، الا أنه لايمكن الركون لهدوئها الظاهرى ذاك .

وعندما رأيت الناس يتجهون بعيونهم نحو ذلك الجمع الصغير الجالس فى المقدمة ، يممت وجهى الى هناك ، ورحت أدقق وأدقق حتى تذكرت . كان ثمة

عدد من الممثلات اللائى سبق لى أن شاهدتهن فى السينما والتليفزيون . وكان مدهشا لى أن أراهن رأى العين : تجسدن فى فساتين وشعور مصففة ووجوه تبدو كأقنعة بألوان نارية . يدخن ويتكلمن ويتلفتن عارفات أن الجميع يلاحظونهن .

تراجعت للخلف ، لكن الموسيقى استوقفتنى ، فقد كان لحنا سطحيا آخر ، شائعا وموزعا توزيعا حديثا .

أضىء المسرح ، لتخرج النسوة يقطعن المكان بأعضائهن القوية ، وتلك الحركات المنطوية على عنف مكتوم يكاد ينفلت ، وهن يواجهن الجمع بوجوه مصبوغة ، ويرسمن الضحكات ، ويجتهدن فى عرض أجسامهن الشفيفة الضامرة بالفساتين القصيرة والطويلة والداكنة والملونة .. نسوة خلف نسوة ، يطلعن ويطلعن ، يبعثن على الدوار قاتلات حين يلتفتن فجأة مستديرات بخصورهن ونهودهن وحدها ، قبل أن يكمل باقى الجسم التفاتته ، فيعدن مرة ثانية ، يخطرن فى مشيتهن ، ويمنحن الناس المزيد : مضبوطات مع الألحان التى تتغير دوما كأنها لحن واحد .

واستسلمت للقطعان المتدفقة ، كأنهن كن محبوسات بأقراطهن وأساورهن الملونة . يطرن خفيفات هضيمات لا يكدن يلمسن أرضية المسرح ، مشدودات مرفوعات الرؤوس داخل الدوائر المضيئة التى ما تنى تتابعهن حتى يختفين . ولما عادت الزنجيتان مرة أخرى ، وقد غيرت كل منهما فستانها ، اهتديت الى سبب ورودهن اللامتناهى .

تململت البنت بين ذراعى ، فسارعت بضمها فى حضنى ، ورنوت اليها ، وأدركت انها صحت بالفعل ، فألصقت خدى بوجهها خائفا من صراخها المفاجىء ، لكنها كانت تبتسم كأنها تصغى للحن الخفيف المنتشر ، وتكاد تحرك ذراعيها الصغيرتين المرفوعتين بجوار أذنيها . عندئذ ، ضممتها

وقبلتها وأدرت وجهها كى تتفرج معى على جيش الهيفاوات .

ثم انتبهنا كلانا : انها رائحة البرتقال . أجل ، ذلك الأريج الفاغم المميز لا يمكنه أن يختلط عليّ . رحت أتلفت حوالى ، وتطلعت الى المسرح ، وعدت ثانية أبص خلفى ، وروعنى أن الباب الذى كنت استند عليه مواربا ، بات مغلقا الآن من خلف ، بينما أريج البرتقال مايزال يتضوع بالرغم من الضجيج ودخان السجائر والموسيقى وجيش الهيفاوات المتدفق قدامى . قلت لنفسى ان اغلاق الباب ليس مصادفة ، ولا ينبغى اهماله ، مثلما أهملت كل شيء منذ خروجى المتعجل فى أول الأمر ، وما أعقبه من أحداث جسام ماتزال تطبق على روحى وتملؤنى كمدا وقهرا .

وفى لحظة ـــ انكشف امامى كل شيء ، لما لمحت العجوز قاعدا الى مائدة فى أقصى القاعة من الخلف ، وحوله جلست المرأتان اللتان كانتا تلازمانه وهو يقود القردة . واذا كان يرتدى الآن بدلة سوداء ، بل وبابيون اسود لامعا ، واذا كانت المرأتان تدخنان وقد لبستا فساتين سهرة طويلة ، الا اننى تعرفت عليهم على الفور .. وبات اغلاق الباب أمرا مفهوما ، وأضحى التضييق عليّ ومطاردتى ثم هروبى الدائم غير مقصور على من تعقبونى عند مغادرتى الحجرة المطلة على الخلاء ، بل وعلى آخرين أيضا ، لا أعرف بالضبط علاقتهم بالأولين .

وعلى ذلك ، فإن تسللى وهروبى الآن لم يعد من الممكن تأخيرهما لحظة واحدة . ولن يخدعنى استغراقهم ـــ العجوز والمرأتين ـــ فى التحديق ومشاهدة جيش الهيفاوات ، وسارعت الى الاختفاء فى الحنية الصغيرة الملاصقة للباب المغلق . مرة ثانية ، هاجمتنى رائحة البرتقال . وجعلت أبص حولى واحتضن البنت ، حتى جذبتنى العيون الوسيعة والجبهة المنوّرة هناك ، ثم الرقبة الخمرية الطويلة . ها هى اذن تخطر متباطئة متأودة ، الى أن التقت عيوننا . كانت

ترتدى فستانا سابغا مريحا يلف كل الجسم كأنه جلباب : بلون السماء وله كمان طويلان . شعرها مرفوع وكحلها ثقيل . قلادة بلون أزرق ثقيل تحلى جيدها وقرط أزرق يتدلى من أذنيها ، ونظرة جانبية ترمى سهامها ، وتلك المشية لاتكاد تلمس الأرض ، بينما الخلخال الدقيق بلون الفضة يلوح فى نهاية ساقها ، وجسمها النحيل مشدودا ، وأنا أفتح عيونى ، وأعدل البنت حتى يكون المسرح قبالتها . هى رائحة البرتقال تتضوّع . دلتنا عليك أخيرا .

هززت البنت ، وقلت لنفسى ان رائحة البرتقال أحلى وأبهج الروائح . واذا كان زملائى غابوا عنى أو ضللت طريقى اليهم منذ قليل ، فان عثورى عليك ، انا الذى كنت قد فقدت الأمل تماما ، يجعلنى أصيح وأزيط بأن رائحة البرتقال أحلى الروائح ، وأن جسمها الطائر داخل فستانها السابغ يبعث داخلى تلك اللهفة المختلطة بالخوف ، وذلك الاحساس المقترن برائحة البرتقال .

حين انفض المسرح ، خشيت أن يضيئوا الأنوار ، ونظرت ناحية العجوز الذى كان قد وضع ساقا على ساق ، يدخن بمبسم طويل ، بين المرأتين المائلتين على المائدة . هيئتهما تبدو منفرة ومستعارة . فستان راسخة الجسم — الكحلى — وذراعاها العاريتان وصدرها المكشوف وأساورها الذهبية وطلاء وجهها ، بل وجلستها المفتوحة الساقين .. كل هذا ضاعف من ريبتى . أما الصغيرة التى كانت تعرج بساقها ، فلم يكن بوسعى أن ألمح الا شعرها الهائج حول وجهها المصبوغ وكتفيها العاريتين ، بسبب جلوسها على الناحية البعيدة من المائدة .

غير أن الموسيقى عادت ، وأقبلت النسوة مرة ثانية . كيف اذن لم أتعرف عليك لما وقفت أتطلع الى جيش الهيفاوات حاملات الحقائب حال دخولى ؟ كيف أتصرف الآن ؟ هل أبقى تحت رحمة العجوز والباب المغلق من خلفى ؟ .

على أية حال ، هناك الباب الرئيسي فى الخلف ، يبدو مواربا أمامى لكن ذلك يقتضى أن أمر بالقرب من العجوز ، وهو مايعرضنى لمواجهته مباشرة . هناك أيضا هذه الردهة الضيقة المظلمة الملاصقة للمسرح ، لكننى أيضا مجبر على الظهور ، حتى لو التصقت بالحائط ، وسرت ببطء مستغلا الضوء الخفيف وضجيج الهيفاوات والموسيقى .

تراجعت بظهرى ورحت أجرب فتح الباب بكلتا يدى ، مسنداً البنت على كتفى . لم يكن ثمة مقبض أشد منه ، وكان علىّ أن أدخل ما أتمكن من ادخاله من أظافرى فى الشق وأحاول الجذب . أدخلت طرف حذائى من أسفل ، واستندت بجسمى ومضيت أخمش بأظافرى ، حتى فتح الباب أخيرا ووجدتها أمامى . فتحت ذراعى ، فتلقفت هى البنت قبل أن تسقط . احتضنتها وقبلتها فى فمها وهى تجرى معها الى الخارج ، وانطلقت وراءها فى الدهليز المواجه . جعلت أرتشف رائحتها ونحن نقطع الردهات المتتابعة ، وننحرف داخل دهاليز طويلة ، حتى خرجنا أخيرا الى البسطة المقابلة للمصعد . كان ثمة لافتة صغيرة معلقة على حامل بجوار المصعد ، وأمكننى أن أميز منها : « فى قاعة عايدة » ثم كلاما آخر بلغة لاتينية . هممت بسؤالها لكن الناس تزاحموا فجأة وانفتح باب المصعد .

عندئذ التفتت لى مبتسمة وعيونها حلوة . كانت ترتدى نفس الفستان السابغ المريح ، لكنها غيرت قلادتها بقلادة معمولة من حبّات كبيرة من البنفسج ، يفصل بين كل حبة وحبة شريط صغير من الخرز الأسود . واكتشفت الحقيبة المصنوعة من قماش الخيام معلقة على كتفها . همست ونحن نصعد السلم :

« لما شفتكما لم أصدق نفسى .. قلت (معقولة) .. لماذا تركت البيت ؟ .. » .

أكاد أركض محاولا اللحاق بخطواتها المتتابعة السريعة ، وعيناها ما تزالان مكحولتان بذلك الكحل الثقيل الذى رأيته وهى تخطر على المسرح . وقاومت رغبة تحرقنى فى أن ألقى ذراعى حولها ، وأدخلها فى حضنى ، ونحن نصعد السلم ، ونشاهد الخواجات الجالسين حول الموائد وبالقرب من البار الذى تصدر القاعة على يميننا . ملت عليها قائلا :

« جاء العجوز ورأيته يقود القردة المكبلين ويسوطهم بكرباجه .. » .

ضاقت جبهتها لما رفعت حاجبيها هامسة :

« العجوز ؟ .. » .

« آه .. وكان معه المرأتان . أنا لم أحك لك .. هاتان المرأتان قابلتانى وركبتا معى العربة حتى باب زويلة .. » .

انفتح الباب الزجاجى لما اقتربنا ، وعبرنا بجوار الرجلين المرتدين القفاطين الحمراء . كان الليل فى الخارج ، وثمة أضواء تلوح بعيدة عبر النيل الصامت . وتراءى لى من بعيد مبنى مجلس قيادة الثورة القديم . تعرفت عليه مرة ثانية ، عبر الجسر ، وخلف الكازينو الذى اخترناه أنا وعزه وقضينا فيه ساعات وساعات لا نمل من الكلام والبوح . وتسلل نحوى انقباض خفى ، رحت أحاول تفاديه دون جدوى . أحسست بالبرد وتذكرت اننى نسيت سترتى ، كما نسيت أن أسألها عن الورقة ، أو التميمة ، أو الرسالة التى قرأتها قبل أن يجيء العجوز ، ولم أشعر الا بكفها تمتد ملامسة خدى ، وقد وقفت قدّامى ضاحكة :

« حتى قميص نومى قطعته وعملته غيارات .. » .

مددت يدى وأمسكت بكفها على خدى . قربتها نحوى ، وشممت

رائحة البرتقال فى شعرها ورقبتها وشفتيها الساخنتين العذبتين . كان جسمها الباذخ دافئا ، وأنا أحس بالبرد وأدفع نفسى اليها . وحين جذبت شفتيها من فمى همست :

« حاسب .. البنت على كتفى .. » .

الأشجار الحجرية

كان المطر يتساقط رذاذا خفيفا يهمى بلا انقطاع ، وأنا أرقب الدنيا من زجاج العربة الخلفى ، ثم أرنو الى القلادة البنفَسجية على صدرها ، وقد مالت محتضنة البنت ، ورائحة البرتقال محبوسة تنداح داخل العربةْ .

آمنا ، تتردد عيناى بين الدنيا المارقة ببطء مغبشة بالمطر والليل والنيل ، وبين شعرها المعقوص ذيل حصان ، يرتعش حين يفاجئنا ضوء السيارات من حولنا . نظرت الى يدى فوجدتها ممتدة من أعلى المقعد ، وكفى قابض على كتفها البعيد ، وقد لمتها فى صدرى ، مستسلما لدغدغات المطر والرائحة الخفية المتدفقة من الخارج : رائحة البرد والمطر والنيل والشاطىء المبلول . كأننى انطلق فى الصباح المبكر ، حاملا حقيبتى القماش المدرسية على كتفى ، ارتجف وتوجعنى أطرافى ، والدنيا تبدو مغبشة أيضا من خلف دموع الصقيع التى تنفلت رغما عنى بعد أن تهن مقاومتى .

لابد أن يكون لامتثال كل منا للآخر سبب ما . هذا الفيض من السكينة وهدوء السر وخفة الروح وامتلائها والاطمئنان الى استغراقنا معا .. لابد أن يكون له سبب ما . هل حكيت لك عن كل ماجرى لى ؟ منذ اضطررت للخروج فى أعقاب تسلل العجوز الذى يقود قطيعه من القردة ، وبعد أن قرأت خطابك .. وكيف عرفت أنه خطابك ، بل وكيف عرفت أنه خطاب أصلا ؟ . ورحت أبحث فى جيوبى ضائقا من القلق الذى تسببه حركتى .

اذن ، ليكن خطاب ما ، أو ورقة ، أو تميمة ، أو أى شيء . ماذا كنت أقول لك ؟ . نعم . لم أحك لك ماجرى لى منذ خروجى وحتى طلوعك من بين جيش الهيفاوات ، ثم وقوفنا امام الفندق ، قبل أن تشيرى للسيارة الأجرة ، التى كانت قد أنزلت لتوها كهلين يرتديان بدلا سوداء وطواقى صغيرة شكلها غريب ولحيتيهما تتدليان على صدريهما . أخذنا نحدق فيهما ، وهما يجولان بعيونهما فى العتمة الخفيفة . ملأتنى الدهشة والخوف اذ اقتربا منها ، مسكونين بالظلام والبرد ، ثم رفع أحدهما يده ولوح زاعقا بصوت رفيع جارح :

« شالوم .. » .

وخيل لى أنهما يبتسمان ، بالرغم من أن أحدنا ــ أنا وهى ــ لم يتحرك قط . لكننى حين تبينت أنه قال شالوم بالفعل ، انفجرت غاضبا مقهورا مكروبا . كيف لم أتبينهما منذ الوهلة الأولى ؟ . حاخامان جاءا من البلاد السليبة والبعيدة ، حيث يكسرون ــ نعم يكسرون ــ أيدى الأطفال ، ويسكنون عشرات الآلاف منهم معتقلات أنصار واحد واثنين وثلاثةوثلاثمائة ، كما قالت الفلسطينية . وقبل ان يترك الجميع المكان باتفاق يبعث على الريبة ، وبعد أن تكلموا بكل اللغات . حاولت أن أدفع عنى ما حدست أنه قد يكون سبب مجيئهما . هل يتعلق الأمر بما شاهدته منذ قليل واستدرت حائرا ، ونظرت نحوك . ثم عدت لمتابعتهما ، غير أنهما كانا قد غابا . تقدمت نحو الباب ، لكنك ناديت قائلة :

« الدنيا برد على البنت .. تعال .. » .

لماذا وافقت على أن تتوقف ؟ وما الذى كنت ستفعله لو مضيت خلفهما ؟ .

وعدت أسرح البصر ، عبر الزجاج المغبش للعربة . كان الطريق يتضح

رويدا رغم الليل والمطر . وقلت لنفسي ، لابد أن يكون لامتثال كل منا للآخر سبب ما . ورغبتي فى أن نستسلم معا للفراش . نستغرق ننام ونصحو ونعاود النوم مرة أخرى بعد أن أرتشف من ثغرك المتلألىء والسكينة تفيض علينا أخيرا .. كل ذلك لابد أن يكون له سبب .

والمطر يهمى خفيفا ، غير أننى استطيع أن أميز وشيشه ورائحته من داخل العربة ، حيث كنت أرقب الطريق . وسرعان ماا كتشفت أننى قطعته من قبل فى عز ظهر أغسطس ، بعد أن تسلمت الحقيبتين الكبيرتين البلاستيكيتين المحشوتين بتلال من الأوراق التى كان متعينا علىّ التخلص منهما ، فى الشقة الضيقة ، حيث أوانى أسامة ، بعد أن استأجرها خصيصا من صاحبها الرقيب فى شرطة المرافق. ركبت الاتوبيس المزدحم على النيل ، عقب تسلمي الحقيبتين من ماجدة فكرى ، ودرنا قليلا فى الشوارع لنتأكد مما اذا كان أحدنا قد جاء الى الموعد ووراءه مراقبة ، ثم افترقنا بالقرب من المنزل الذى يسكن فى احدى حجراته صاحبى يحيى الطاهر . ومضيت وحدى ألف فى الحارات الرطبة المخنوقة ، قابضا على الحقيبتين مبلولا فى العرق حتى عبرت قضبان المترو .. وخرجت أخيرا ، مخترقا الميدان الصغير الذى يتوسطه ضريح سليمان باشا الفرنساوى .

كأن دهراً قد مر ، وأنا أشيل الحقيبتين داخل الاتوبيس ، لا أقدر إلا أن استسلم للسحق المتواصل والعرق والكتمة ، خائفا من انفلات احدى الحقيبتين وتبعثر محتوياتهما فى الزحام ، الى أن شاهدت الأشجار الحجرية على الجانبين منتصبة ميتة ممتدة حوالى كيلو مترين : أشجار وأشجار امتدت ممتصة عادم مصنع الأسمنت القريب لسنوات طويلة ، يرمى يوميا بطبقات من التراب الأسمر بالغ النعومة ، أنفضه كل صباح عن وجهى وفراشى ، وأنا محبوس داخل الشقة الضيقة التى لا يصلها الماء الا عبر أم بكر العجوز التى تحمل لى صفيحتين تدلقهما فى الزير كل صباح .

وقبل أن أصل الى محطتي ، كان الأتوبيس قد خلا تقريبا . وأخذت أدور بعيني فى ذلك النفر القليل المتناثر على المقاعد ، ثم نهضت ، مترنحا متقدما نحو السلم المجاور للسائق .

قضيت ليلة كاملة أحرق فيها تلال الأوراق المكتوب أغلبها بالقلم الرصاص ، والبقية الباقية منها أعداد من مجلتنا السرية المطبوعة على الاستنسل . كان عليّ أن أتخلص من جميع الأوراق على مهل ، وحتى لايتسبب الدخان الناتج من الحريق فى تساؤل الجيران ، ومن ثم تحدث مشاكل . وكانت هناك أماكن تم اخلاؤها قبل أن يدهمها البوليس ، وليس معقولا أن ينتقل الزملاء بين الأماكن التى جرى اخلاؤها ، وبين تلك التى تم تدبيرها لهم ، وهم يحملون حقائب ممتلئة بهذه العبوات الناسفة من الأوراق ، كما أخبرتنى ماجدة فكرى .

ظللت نائما حتى عصر اليوم التالى ، لما جاء أسامة واصطحبنى الى (النصبة) الظليلة على النيل . طلب زجاجتي بيرة ، وقعدنا على النيل مباشرة . غابات النخيل المثمر كثيفة عبر الناحية الأخرى من النهر ، تقطعها أشرعة المراكب المنسابة فى هدوء ، ومن خلفها تبدو الشمس بلون البرتقال . أسمعنى قصيدته الجديدة ، وحكيت له عن عزه .. سوسنة الأودية ، كما كنت أدعوها آنذاك ، بعد أن تعرفت عليها لتوى .

كان دخان مصنع الأسمنت لا يكل طوال اليوم وأشربه مع الماء وآكله مع الطعام وأنفضه عن عينى المحروقتين وفراشى كل صباح ، وأعبر كلما خرجت ، وحال عودتى ، أمام صفى الأشجار الحجرية الممتدة فروعها دون أوراق ، تتلوى غصونها اليابسة ميتة كأنها على وشك السقوط .

هل تمضى بنا السيارة الى هناك إذن ؟ . سألت نفسى وأنا أحدق الى صفى الأشجار الموشكة على التهاوى . وشعرت بها تتحسس حقيبتها القماشية المعلقة على كتفها . همست لها :

« هل قابلت أسامة ؟ .. على العموم معه مفتاح .. » .

كان يفاجئنى أحيانا فى الليل ، حين تكون النقود والطعام ، بل والشاى والسجائر ، قد نفدت تقريبا . نمضى معا لملء الكلوب غازا من السباك على الناصية ، ثم نعرج على (النصبة) مشرفين على النيل نحتسى البيرة ، قبل أن نعود لتناول عشائنا . لانشون وجبن رومى وبيضاء ومخلل جاء بهم أسامة من نص البلد .

دست فى يدى نقودا ورقية لا أعرف عددها ، والسائق يهدىء من سرعة العربة ، ثم يتوقف أخيرا على جانب الطريق .

ما يزال المطر يهمى بلا انقطاع . رذاذ خفيف لكنه لا يكف . كان الجو باردا ، ونحن ننطلق عابرين الشارع . وكانت هى قد رفعت حقيبتها تغطى رأس البنت وقد ابتل فستانها . وما لبثنا أن انحدرنا نخوض فى الأرض المبلولة الزلقة . كان تضحك بوجهها وشعرها المبتلين هامسة :

« خلى بالك .. لو وقعت لن أقدر على تخليصك .. » .

لكننى لم أضحك وأخذت الأمر مأخذ الجد ، ومضيت حذرا متوجسا فى الوحل والعتمة . وأشرفت من أعلى التل على عشرات البيوت المتناثرة أسفل مداخن مصانع الأسمنت الضاربة فى السماء .

كان ثمة مصابيح قليلة ، مبعثرة هنا وهناك كالنجوم الباهتة . دغدغات المطر لم تنقطع ، غير أن فرحى بها تكدر ، وأنا أحاول جاهدا استعادتها ، وقد تلبسنى الحذر ، وقلبت فى ذهنى سريعا عن رد أعده جاهزا لو حاولت مرة أخرى أن تكرر ماقالته ، وأحسست بما يشبه الخوف للمرة الأولى . لقد أنقذتنى كثيرا ، وكلما أحدقت بى الكارثة ، بزغت هى لى كنجمة الصباح . وبالرغم من ذلك ، فإن الخوف بدأ يتسلل لى ويدخلنى هذه المرة من حيث لا

أستطيع رده . هناك الكثير مما يستوجب أن نتحدث فيه معا . وبعد كل ما مر علينا ـــ أنت وأنا ـــ يجب أن تسمعيني وتردّي عليّ . وليس يسيرا ـــ على أية حال ـــ أن استسلم لهذا الكدر المقبض ، وهو يزحف على روحي ، أشبه بالمهانة المصحوبة بالعجز ، متسللا حتى يتملكني .

وجدتني أهتف مكروبا .. مادامت تعرف هذه الشقة ، فربما كانت هي التي زاملتها شهورا ، بعد الضربة الأمنية الأخيرة . وهل زاملت أنا ماجدة فكري أم بنتا أخرى ؟. لكن هذا الفم وتلك الفرجة الضيقة بين الأسنان العلوية يذكرانني بامرأة أخرى جرى بيني وبينها ما لا أستطيع التوصل له .

تابعت جسمها الطليق الملفوف ، وهي تواجه الأرض الزلقة ، وانفلتت الى اليمين ، صاعدة درجات ثلاث عالية ، لتعالج الباب منحنية ، بعد أن نقلت البنت الى ذراعها اليسرى .

خنقة الأسمنت المكتومة هبت علينا حين ولجنا الى الداخل ، وجثم الظلام لما أغلقت الباب من خلفنا . عاودني الخوف وأنا لا أكاد أرى شيئا ، وأتقدم في العتمة .

أعرف مكان الشمعة في جانب من الرف الصغير الذي أضع عليه فرشاة الأسنان والمشط فوق الزير . دفعت بقدمي وأنا أسمع أنفاسها المنتظمة ، ورفعت يدي أتحسس بهما حتى وجدت الشمعة وعلبة الكبريت . وما لبث المكان أن بان في لحظة واحدة ، فأمكننا أن نتجه الى الحجرة الأولى على اليسار . كانت المنضدة هناك في أقصى الركن وبجوارها المقعدان المكسوران ، والكتب متناثرة ومكومة ، ثم أطباق بها بقايا طعام . اختطفت الكلوب من ركن الحجرة ، وأخذت أعالجه ، حتى أضيئت « الرتينة » وانداح ضوء باهر عنيف ، أحال كل شيء الى بياض يعشي العين .

واجهتنى سابحة فى النور والبنت فى حضنها ، وفتحت فمها الآسر قائلة :

« تعال نروح هناك .. هنا ثلج .. » .

وقرقفت وهى تفرك يديها ، فحملت الكلوب ، وعبرنا الى الحجرة التالية . جلست على السرير ، ومددت البنت متنهدة بصوت مرتفع :

« آه .... هـ هـ ياابو .... يا ... » .

اندفعت نحوها أتحسس كتفيها وأحدق فى عيونها الواسعة السوداء . همست :

« كل هذا الثلج كيف نتحمله .. » .

واحتضنتها ونحن جالسان ، وعاودنى الاطمئنان السخى الهادىء مرة أخرى . ها نحن معا ، والطفلة ، وربما هبط علينا أسامة بعد قليل ومعه العشاء . لدى يقين غامض بقدرتى على أن أحسم الأمر ، وأواجهها . فقط لو تغلبت على كل هذا الثلج ، وخنقة غبار الأسمنت ، واستمسكت بعيونها الواسعة فى الضوء الباهر .

تربعت فى الفراش ، واسترخى جسمها وثيرا باذخا . وفى لحظة خاطفة ، عجبت لأنها تكدرت فجأة . انعقد جبينها وتغضن وجهها على نحو أعرفه تماما ، وأعرف ما سوف يعقبه من افتعال مشاجرة ما لأى سبب . سوف نتبادل التحرشات الأولى ، الى أن اضطر مجروحا مهزوما ، لأننى لا أستطيع أن أمنع ما يجرى أمامى ، للرد عليها بكل ما استطيع استدعاءه من سباب ، مدركا أننى سأفقد حالا كل سيطرة لى . فى الأيام الأخيرة ، حطمت التليفزيون بالمقعد ، وهشمت زجاج نافذة الحجرة برأسى ، وصرخت عزه

والتم الجيران ، فغادرتها حازما أمرى على النجاة . كيف وصلنا الى ما وصلنا اليه ؟ . ظللنا نصعد ونصعد ـــ هل نتذكر ما كنا عليه عندما جاءوا للقبض علينا فى الواحات ـــ مثل كل الصاعدين الذين تقطعت بينهم الحبال . كان ثمة شيء يذوى ويتضاءل . ذبول وضجر وانكسار يزحف حتى وضعت الجنين قبل أوانه ، مرعبا دقيقا بالغ الضآلة وهو مستغرق فى حضانته الزجاجية . وعندما أصبحنا فوق قمة المنحدر ، بات من الصعب أن تمنع نفسك من الانحدار بمجرد البدء . ساعات الصباح أكرهها . أرزح تحت ثقلها الكئيب خائفا من أن يغلبنى النوم . وحين يستدعينى ناظر المدرسة ، إختطف العصا وأصعد الى الأدوار العليا ، لأمنع الطلبة من المكوث أثناء الفسحة للتدخين والتهريج وتشجيع مباريات الكرة من الممرات العليا . ثم أنصرف لألحق بالبرنامج الثانى فى الاذاعة ، لأسأل عن إذن قصة أو حديث ، أو أمر على أحد الكتاب بالجرائد والمجلات لأجرى مقابلة صحفية ، أدفع بها الى أحد المكاتب الخاصة بالتسويق . وفى آخر النهار أعرج على المقهى ملولا مرهقا . ثم ما ألبث أن أعود لأجدها صاحية متحفزة ، فلا يكون أمامنا الا أن ننخرط فى عراك يستمر حتى اليوم التالى . تنحدر أنت ، وتنحدر هى ، وينحدر الآخرون ، وتتبدل ملامحهم وملامحك حتى أنك كثيرا ما تكتشف اختلاط الأسماء عليك : زملاء قدامى وشعراء وقصاصون ونقاد وروائيون ومراسلون لصحف ومجلات الخليج وباريس ولندن .

هناك أسباب لاتنتهى للاشتباكات : المرتب الذى تفقده قبل أن يستقر فى الجيب . الفلوس المتأخرة دائما عن القصص والموضوعات التى سلمتها بالفعل . أنبوبة البوتاجاز التى فرغت منذ شهرين ، وعليك أن تحملها باحثا عن بائع الأنابيب المختفى طوال النهار ، ورائحة الجاز فى الشقة التى ضاقت وضاقت . ترتدى ملابسها وتقول لك : نخرج الآن . حتى لو كنا فى منتصف الليل . هل نجحت فى النجاة من كل ذلك ؟ . سأقولها لك بوضوح : انت

لست عزه .. أليس كذلك ؟ . لن أضطر لتدخين عشرات السجائر ، والغرق في صداع وكمد وتسوّد الدنيا وأفقد كل رغبتي فيك الى آخر العمر .

يكفي فقط ، لأستطلع الأمر ، أن أعاود سؤالها عن اسمها ، فإذا بادرتني بالعراك ، فإن هذا كاف لأعرف أنها عزه ، أما اذا اختلف رد فعلها ، فسوف أتروى قليلا ، وأسألها عن أسامة . وإذا كانت ماجدة فكرى ، بالرغم من استبعادى لأن تكون هى ، الا أننى أصبحت فى حال لايمكننى معها حسم أى من الأمور التى تترى بهذه السرعة .

على أى حال ، اذا كانت هى ماجدة فكرى ، فربما أمضينا الليل كله معا ، وسوف اذكرّها بالأيام الطويلة التى قضيناها معا ، قبل أن يتم تدبير مكان آخر لها ، فى أعقاب الضربة الأمنية التى أصابت عددا من الأماكن.. فى موعد أم بكر التى تحضر لنا الماء ، تختبىء ماجدة تحت السرير . نختنق داخل الشقة الرطبة الضيقة بغبار الأسمنت الغامق الجاثم على صدرينا ، دون أن نجسر على فتح النافذة . اقتصر خروجى على القليل النادر ، وفى أغلب الأحيان كان أسامة يحضر معه كميات وفيرة من الجبن والخبز والشاى والسكر والسجائر ، والأخبار . ألقى وجهك كل صباح ، وتصافحنى عيناك العسليتان ونحن نتناول الشاى . وفى كل مرة ، كان أسامة يدركنا قبل أن نضعف فى سجننا . وبعد أن تأخر أسبوعا كاملا ، كاد ما لدينا من طعام وسجائر أن ينفد . ثم مضى يومان دون طعام وشربنا الشاى بدون سكر . مددت جسمى الى جوارك وأنا أغرق فى دوار ثقيل يدفعنى عنوة ، فيما كنت أبحث عن أزرار البلوزه لأغيب بوجهى بين ثدييك .

تململت البنت فى حضنها ، وجعلت تطوح بأعضائها داخل البطانية ، ثم فتحت عينيها وراحت تنظر لى ثم تنظر لها ، حتى بزغت الابتسامة فى وجهها . لقد تعرفت علينا . تضىء جبهتها وشعرها الفاحم بسمة مطمئنة مستريحة ، قبل

أن تمد يدها نحو الصدر المنحنى عليها .

انفصلت عنى وأراحت البنت على فخذيها صائحة :

« صحونا من النوم يا ماما .. الأكل يا عيون ماما .. » .

وهى تمد وجهها وتلامس وجه البنت ، توقفت تتفحص رقبتها بأطراف أصابعها قائلة :

« يابنتي ياحبيبتي .. رقبتها ملتهبة .. نار ياعيني » .

ثم التفتت لى :

« لابد أن كل جسمها ملتهب .. لازم تستحم الآن .. اسمع .. لا ماء عندنا .. تأخذ الجردل وتشطفه وتملأه من عند الجيران .. » .

قاطعتها دون أن أرفع عينى ناحيتها ، تلك المقاطعة التى يعقبها ــ دائما ــ اضطرارى للقبول :

« الدنيل ليل ومطر .. كيف أخبط على الناس الآن ؟ » .

همست حاسمة كل شيء :

« المطر لم ينقطع بعد .. قل لهم لولا المطر لكنت ملأته من (الحنفية) العمومى .. » .

« ملأته ؟ .. » .

تابعت مبتسمة تقريبا :

« آه .. الجردل يعنى .. البنت جسمها ملهلب ولابد تستحم » .

فردت جسمى الذى أحسست به مخدرا بعيدا عنى ، وغادرتنى رغبتى

فيها التي كانت تحرقني منذ لحظات . أتشهى يقظتي المفاجئة على شفتيها الساخنتين ، ووجهها المذنب المرتعش مستسلما مطواعا ، لما باغتتني قبل زواجنا في حجرتي في بيت أمي ، قبل أن تنتهي نفس الليلة التي انفصلنا فيها وقد أنهينا معركتنا الأولى في الشارع ، وانقلبت عائدا الى البيت عازما على الابتعاد ريثما أتدبر أمري . تستيقظ على الشفتين والوجه المذنب الساعي الى مرضاتك والامتثال لك ، فتشعر بامتدادها وانصياعها الحنون ، وتروح تتطلع الى لونها الخمري الشهي منتظرا ما سوف يتفتق عنه إحساسكما بوجوب اختراع لعبة جديدة سوف تبدآنها الآن .

عبرت الحمام ، حيث كان ضوء الكلوب ينفذ صافيا الى هنا وهناك ، واختطفت الجردل البلاستيكي الأحمر . كان مغبرا بالغبار الأسمر مثل البلاط والكوز والزير والجدران ، بينما المطر يتساقط في الخارج ، بعد أن ابتعدت عن وشيش الكلوب في الحجرة الأخرى . جعلت أنفخ في يدي الخالية ، ثم فتحت الباب ورددته من خلفي ، والمطر يهمي على رأسي وأنا أخطو الى الباب المجاور .

كان ثمة ضوء خافت يلوح من خلف الزجاج المغبش لـ (شراعة) الباب وفكرت في مدى الحرج الذي سوف اعانيه ، وأنا مضطر لشطف الجردل قبل ملئه من الجيران . خبطت وخبطت ، ثم استندت بكتفي محاولا اتقاء المطر ، فانفتح الباب .

ابتعدت قليلا ، وحاولت أن أرفع صوتي ، لكن الباب ظل مفتوحا ، واستطعت ان أميز بعد لأي شبح الصالة والسجادة المصنوعة من بقايا الملابس والقصاقيص مفروشة في المدخل ، وتهيأت لملاقاة صاحب البيت ، الرقيب أول في شرطة المرافق ، بجسمه السمين ووجهه الأحمر الذي يبدو دائما على شفا الاختناق ، أو أمه الصعيدية الضامرة المشدودة ، رغم أعوامها اللا محدودة ،

ولهجتها الخشنة الحميمة ، كأنها لم تغادر قريتها القريبة من أخميم . كلما صادفتنى استوقفتنى تحكى لى عن ابنها الرافض للزواج . اضطررت للدخول ورفعت صوتى :

« مساء الخير .. سلام عليكم .. مساء الخير ياجماعة .. » .

تمهلت فى الصالة قليلا أتلفت ، غير إننى لم أسمع إلا صوت المطر فى الخارج . كانت الكنبة المفروشة بسجادة من نفس النوع اليدوى المفروشة به الصالة . وكانت اللمبة نمرة خمسة معلقة فوقها تكاد ذبالتها تنطفىء ، وتملأ الشقة برائحة محترقة حريفة . وفى المواجهة ، صورة الرقيب أول فى ملابسه العسكرية مكبوسا بنظرة ضائقة . انحرفت الى اليسار ، وانحنيت فى الردهة الضيقة على الزير الواقف على باب الحمام . رفعت الغطاء وبدأت أشطف الجردل فى الظلام .

على أننى أحسست بحركة غامضة من خلفى ، فاستدرت ولمحت العجوز فى أول الصالة هناك . تصلبت فى وقفتى نصف المنحنية أرقبه فى بدلته الداكنة التى كان يرتديها فى الديفيليه . توصلت لى فى آخر المطاف ، بل ويبدو أنك وحدك بلا سوط ولا قردة ، وبدون امرأتيك اللتين لاتقدران على فراقك . ها أنت تسد مدخل الباب واثقا ثقيلا وقد أحكمت الشرك بعد أن استدرجتنى ، وعيناك اللامعتان المنذرتان بوسعى أن ألمحهما بالرغم من الظلام الذى يلف بدلتك الداكنة . اكتشفت أن يدى تمسك بغطاء الزير البارد . ها هو ثقيل مستدير مسنون ، ربما كان غطاء حلة أو طبق معدنى كبير . رفعت صوتى ، تكلمت . قلت له لن تنالنى بالرغم من كل ذلك . وقلت له اننى لم أعد أخشى شيئا بعد كل ماصادفته ورأيته بعينى هاتين . ولما اكتشفت أن صوتى لايخرج ، قبضت جيدا على غطاء الزير ، وفكرت بسرعة أن علىّ ألا أعطيه فرصة لبدء الهجوم . وانتابنى الذعر حين تذكرت اننى ربما تركت باب الشقة الآخر

مفتوحا . وما يدريني اذا كان اصطحب معه امرأتيه اللتين قد تكونان فى هذه اللحظة هناك . وبالرغم من اننى حسمت مسألة ألا أعطيه فرصة البدء بالهجوم ، إلا أن المشكلة الآن هى كيف أقطع هذه الخطوات القليلة بينى وبينه . هل أتقدم لأهيىء لنفسى فرصة مواجهة مفاجآته التى قد يباغتنى بها فى لحظة خاطفة ؟ . أم أقفز عليه قفزة واحدة دون أن أمنحه فرصة مواجهتى ؟ هل انتظر أن يساعدنى الرقيب أول ؟ . سوف ينتفخ باعثا على الضحك زاعقا كيف جرؤنا على الدخول فى غيابه ، وسوف تندفع أمه القصيرة تتفقد ممتلكاتها .

وجدتنى أقفز فجأة ، منتبها الى تجنب الالتقاء بعينيه ، ثم هويت على وجهه بغطاء الزير مرة ومرة ومرة ومرات ، بأقصى ما يمكننى من السرعة ، حتى أننى فقدت السيطرة على ذراعى وكفى القابضة المتصلبة . لمحته فى البداية يتجنب ضرباتى ويلف حول نفسه محاولا الوصول لى . لكننى كنت قد فاجأته بالفعل . كانت ضرباتى مصوبة جيدا . تصطدم بلحم الوجه والرقبة وتغوص ، ثم أسحبها بعنف معاودا تصويبها هنا وهنا وهنا ، الى أن اختل توازنه ، قبل أن يتكوم على نفسه ويسقط وقد تقرفص نصفه السفلى ، بينما نصفه العلوى ووجهه يمتد مفترشا الأرض . كان وجهه غائبا وأنا لا أكاد أتبين صوت أنفاسه ، لكن رائحة الدم انطلقت مختلطة برائحة المطر ، والهواء يندفع من الخارج ويعبث بالضوء القليل فى الصالة ، وثمة كلاب بعيدة يأتى نباحها ضعيفا .

لو لم أعاجلك لما رحمتنى ، وعلىّ أن أخطو الآن ، وسوف أضطر للاحتكاك بك حتى أخرج الى الصالة . ثمة مشكلة أخرى الآن : هل أملأ الجردل بالماء ، وأحمله محاولا العبور ، لكننى فى هذه الحالة سوف أصطدم به بالتأكيد ؟ . حدقت فيه ، حين بدا لى أن ثمة رجفة خفيفة تنبعث من جسمه ، وعاودت احكام قبضتى على غطاء الزير ، وهاجت رائحة الدم ، غير أن

جسمه عاد للهمود مرة أخرى .

أتنفس بصوت عال ، وأحاول التغلب على الألم المكتوم الذى حل بقلبى ، ثم أخطو مقتربا من نصفه العلوى الممدود الملقى . ارتعش ضوء اللمبة اثر دفقة هواء مفاجئة ، وبات من العسير علىّ أن أمنع احتكاكنا والقشعريرة المشمئزة الوجلة ، التى دفعتنى نحو الصالة أقطعها عدوا ، حتى شاهدت المطر فى الخارج ، توقفت قليلا ، فى الخلاء : فوق السماء والرذاذ باردا على رأسى ووجهى ، وشىء كأنه انزياح الألم واستنشاق الهواء النقى يعبر المسام ويغزو الجسم على مهل .

دفعت باب الشقة وطالعت الضوء الباهر فى الداخل .

لما رفعت عيونى لها ، انتفضت كالملسوعة واقفة وثديها الأيمن متدليا خارج ثوبها وحيدا يلمع فى النور . واكتشفت اننى مازلت أحمل غطاء الزير ، والتفت الى نفسى ، وداهمنى للمرة الأولى ملمس الدم اللزج بين أصابعى القابضة على الغطاء .

لا أدرى كيف لمت نفسها بسرعة ، ولا كيف ارتدت ملابسها ، الا اننى انحنيت أحمل البنت من الفراش وهى تحشو الحقيبة . غادرنا راكضين ، وهبطنا المنحدر الضيق أمام مدخل البيت تحت المطر .

قبل ان نخرج الى الطريق ، التفت لها قائلا :

« تركنا الكلوب دون أن نطفئه .. لابد من رجوعى .. » .

همست :

« هل الوقت وقت كلوب .. المهم نجاتنا .. » .

ودهشت لتصميم خفى أحسسته ، غير أننى قدرت على قمعه حتى

انحرفنا الى الربوة الصغيرة ، ونظرت الى بقع الماء والأرض الزلقة ، ثم استدرت عائدا ، ورفعت يدى منحنيا بجسمي لأحمي البنت من المطر ، دون أن ألتفت ورائى . سمعت صوتها ، لكننى لم أميّز ما قالته .

دفعت الباب ودخلت الى الحجرة . كان غطاء الزير على الفراش ، فاختطفته وأطفأت الكلوب ، وعدت أركض نحو الخارج . ألقيت بالغطاء فى الفضاء بأقصى ما أستطيع ، ثم أسلمت جسمي للهواء والمطر ، وطفلتى فى حضنى ، حتى واجهت الطريق مرة أخرى فهالنى الازدحام والضجيج والنور والروائح . ناس يتلاغطون ويضوضئون ينجلون أمامى مبهرين ممتلئين حرارة وأصواتا ، وضوء يتدفق صانعا ظلاله ساطعا ممتدا . حينئذ ، خففت من سرعتى ، وتبينت أن الأرض رطبة تحت قدمى ، لكنها بالقطع ليست زلقة . انزلت الطفلة من على ذراعى ، ودسستها فى حضنى ، وحل ارهاق مفاجىء عنيف ، ولاحت بوادر الدوار ، فأخذت أضغط على عينى لتظلا مفتوحتين .

كان علىّ أن أتوقف على أى حال ، وأخذت أتطلع باحثا عن جدار أستند اليه بسرعة .

فردوس

أسميتها « فردوس » وفاء لذكرى أمي الراحلة . لكم تمنيت أن تكون لى بنت وأسميها فردوس . وحين أجهضت عزه فى طفلنا الأول ، لم أستطع أن أعرف ما اذا كان ولدا أم بنتا . أما الطفل الثانى فكان ولدا ، وكنت قد انتويت على الاصرار أن أسميه أسامة . وفى كل الأحوال ، وطبقا لأن المرأة نصف المجتمع ، فان عزه عارضت بحزم أن أسمى البنت ، أو حتى الولد ، فضلا عن أن اسم فردوس « على بعضه » لا يروق لها .

أسميتها « فردوس » وحدى ، وانطلقنا معا حتى اهتدينا الى حجرة لنا وحدنا : تطل على أى بحر وأشجار ونخيل وشمس . لا تقلقى من ناحية الرضاعة ، ويمكننى أن أتدبر أمرى وأشترى لبنا مجففا و« بزازه » . أرقبك طوال الوقت : تكبرين فى كل ليلة ، وتبدأين فى المناغاة ، وتفاجئيننى بنطق الكلمات الأولى والضحك . أصحبك معى أينما أتوجه ، وبعد عام على الأكثر ، استطيع أن أحملك على كتفى ، بحيث يتدلى كل ساق على ناحية من الكتف ، وأرفع يدى لتمسك كل منهما بذراع لك . بعد عام آخر ، اطمئن على ايداعك احدى دور الحضانة المطلة على البحر أيضا . يمكننى أيضا أن أحصل على أى عمل بالقرب من البحر ، بحيث ألمحه بسهولة كلما نظرت ، وسوف أحتاط للأمر ، وأحرص على أن يكون بعيدا عن الخدمة الاجتماعية والمقابلات والتحقيقات والموضوعات الصحفية . وعند عودتى من عملى أشترى لك

شيكولاته وأصحبك معى الى البحر : تمشين قليلا ، ثم أحملك عندما تضربين الأرض بقدميك وأنت ترفعين عيونك الصغيرة الحلوة نحوى بتلك النظرة المخيفة بتصميمها وعنادها ، وبعد قليل تعاودين المشى على ساقيك غير المتزنتين . سوف يحب كل منا الآخر ، وسوف نتبادل كلاما لايعقبه شجار . وسوف أعلمك ألا تخافى . اسمعى يا فردوس . واخده باللك يافردوس . معايا يافردوس . لا تخافى يافردوس .

لكننى لن أسمح لك أن تموتى مطلقا . كل ما جرى تحملته من اجلك يافردوس . ويمكننى أن أطمئن تماما ، أو أطمئن الى حد كبير ، بعد كل تلك المحن والخطوب والنوازل التى عصفت بنا فى نهاية الأمر ، الى أن الحل الوحيد الباقى لنا ، أو الذى تركوه لنا ، هو هروبنا معا ، شريطة ألا تموتى وتتركينى . ليس فقط لأننى أريد أن نكون معا ، ولكن لسبب آخر يخصنى : ماذا أفعل بدونك ؟ ، والى أين أذهب ؟ وهل من المعقول أن أعود مرة أخرى لما كنت فيه ؟ .

غير أنك باردة بين يدى ، ولم يعد مجديا أن أظل أسعى طوال الوقت لدفع الرائحة التى ظننت منذ زمن طويل اننى تخلصت منها . وفى الحرب البعيدة ، التى عبر فيها العساكر القناة ، قبل أن يغدر بهم الفيلد مارشال الماشى مشية الأوزة الحامل عصا المارشالية ووشاح القضاء وعمامة الخليفة السادس وسحنة النازى المتصلبة ــ فى تلك الحرب اذن ، كان متعينا علىّ أن أنقل العساكر الشهداء من المستشفيات الى مقابر الشهداء ، وتملكتنى رائحتهم التى أستطيع تمييزها بالرغم من رائحة الفورمالين الملتصقة بها . هذه الرائحة لا أخطئها مطلقا ، وهى رائحتك يافردوس التى طاوعك قلبك على خيانتى وتركى وحيدا .

انحدرت الى الشارع المواجه ، منصتا لدقات حذائى على الأرض

الجامدة . بين ذراعى نامت فردوس خفيفة واهنة ، لكننى كنت منهكا تماما ، وعظامى أحسها تدق فى البرد القارس . وتذكرت مرة أخرى أننى فقدت سترتى من قبل والورقة الصغيرة التى صادفتها فى الحجرة الأخيرة . وأمامى لاح الضوء الأصفر الباهر ، يكشف عن الجدار البحرى لقبة الغورى . وقلت أننى مررت بجوار القبة فى وقت مضى ، غير أن ذلك لم يعد مهما . ولن يضيرنى أن أقول لنفسى أننى فى الغورية ، وأن عم عزه يسكن بالقرب من هنا . كذلك فما معنى أن أحاول تذكر الطريق الى شقتنا فى شبرا الخيمة ، أو أتذكر الحجرة التى خلفتها فى مبدأ الأمر ورائى ، قبل أن أهبط وألقى العجوز وأظل مشدودا اليه مرعوبا من عينيه المبللتين حتى قتلته وهرولت خارجا . وفى مكان ما أمامى ، يقع دكان عم آدم البروجى الذى لم أوفق فى الاهتداء اليه . وبالقرب منه ، فى الكحكيين ، شقته ذات السقف الشاهق والنوافذ العالية . وفى مكان ثالث ، وفى حجرة أخرى شاهدتك تستحمين للمرة الأولى يا فردوس ، وتدفعين بأعضائك الصغيرة داخل الطست البلاستيكى . وفى نفس الحجرة أيضا ، شاهدت آثار الكدمات على ظهر ذات الثغر المفتر عن الابتسامة التى تشبه النجوم ، والفرجة الضيقة بين السنتين الأماميتين ينثال منهما الضوء ، وأنا أضم الجسم الوثير الطيع ، قبل أن تلطمنى البرودة المفاجئة ، وأتبين رحيلها .

كان ثمة كوبرى علوى ، يمتد فى الضوء الأصفر الساقط من عواميد النور الواقفة . وكان الحاجز الحديدى العالى يقسم الشارع قسمين ، فاتجهت الى السلم القريب ، ومضيت أصعد لأكتشف الدنيا وهى تطلع فى الضوء الساطع . الشارع الممتد والعربات القليلة وجانب من الجامع الأزهر والريح القادمة من الشمال .. كل ذلك لطمنى دفعة واحدة .

ولما نزلت السلم ، استأنفت سيرى حتى عمود النور الواقف فى ظهر قبة الغورى ، وأخذت أتفحصها . كان ثمة جروح وردية فاتحة نتجت عن تسلخ ثنيات رقبتها ، وبين كتفيها وذراعيها . وماذا لو خلعت عنها فستانها ذا

الطيور الزرقاء الفاردة أجنحتها ؟ . لابد أن الجروح الوردية المتسلخة تغطيها تماما ، وتلك الرائحة الملتصقة برائحة العساكر الذين صحبتهم حتى مقابر الشهداء قبل سنوات .. تلك الرائحة لايمكنني أن أخطئها . انها تهب وأنا أشعر بحرارتها ، وأرنو الى الوجه الصغير اذ حال لونه الى زرقة خفيفة ، والجبهة قد انطفأت ، وبانت كأنها انكمشت وضاقت . ها أنا أتيقن من موتك يافردوس ، ولا مجال بعد الآن للاستسلام لأى وهم .

بعد قليل ، وصلت الى الميدان الصغير ، ورأيت الحاجز الحديدى العالى مايزال ممتدا ضاريا يقسم الشارع . وقفت أمام السلالم التى تقود إلى النفق الذى يعبر بك الى الناحية الأخرى ، حيث بدت واجهة جامع سيدنا الحسين ، والمئذنة النحيلة السامقة .

ها هى تطغى اذن ، رائحتها ، وتهيأت للدوار المباغت الذى انهمر فجأة ، كأننى لم أنقطع عنه كل هذه السنوات . أكثر من عشر سنوات . لا .. بل خمسة عشر عاما ، جرت فى النهر خلالها مياه كثيرة وتغيرت الدنيا كلها من حولى . لكن الدوار لم أخطىء مقدماته . وأغمضت عينى مثلما كان يحدث بالضبط ، وبدلا من فردوس التى أحملها ، كنت أحمل الرشاش البارد القصير ، وربما متروكات العسكرى الشهيد : أقراصه المعدنية التى تحمل رقمه وحافظته ونقوده وساعته ورائحته التى تسلمتها من المستشفى . وربما دفاترى وخطابات الاعتماد والتسليم والاستلام المختومة التى أعددتها سلفا . عزه لم أكن قد عرفتها ، ولم أكن قد عملت اخصائيا اجتماعيا فى تلك المدرسة التى كانت هدفا مكشوفا لهم كلما أرادوا اعتقالى فى الحملات الموسمية .. ثم كل هذا الضجر والغضب والانفراط والانكسار غير المبرر . هى غفوة ثقيلة مثل كابوس لم تفق منه ، إلا لتجد نفسك راكضا والعصابة على عينيك بين المدرسة ومكاتب الصحف ومندوبى المجلات والجرائد ، والعودة آخر النهار الى نهاية الدنيا ، تنتظرك عزة التى قضت نهارها وحيدة . يفارقنى الدوار رويدا ، وأفتح عينى لأجدنى قد

انحرفت الى الشارع الذى يقود الى الباطنية بجوار الأزهر ، فأعود أدراجى ، وأعرج الى جوار الأزهر ، قبل أن أستوى فى الشارع ، موليا وجهى نحو الشمال .

هذا الشارع قطعته لى فى الليل العربة العسكرية مرات ومرات ، بين المستشفيات التى يرقد فيها الشهداء ، وبين مقابر الشهداء بالخفير ، تلك القابعة بين أشجار الصفصاف واللبخ والجازوورين ، بعد أن تعبر العربة النفق وتستقيم فى شارع صلاح سالم ، لتنحرف الى اليمين ثم الى اليسار ، وتتوقف أمام البوابة الكبيرة ، وأهبط أنا لأخلص الأوراق ، وأعود مصطحبا عساكر من القوة المكلفة بالدفن ، لنحمل الشهداء وندخل بهم .

دهمتنى رائحة البرتقال التى هبّت على حين فجأة ، فرفعت عينى ، ورأيت الميدان الصاعد المضيء ، وقد تفرغت منه الشوارع وحديقة الخالدين وتلال الأشجار القصيرة تبدو فى الناحية الأخرى . شممت الهواء ورحت أتلفت ، غير أن الرائحة غابت ثانية .

رحت أحدّق نحو الميدان ، وأنا أنهج وأشد جسمى فى الريح القارسة الصعبة . بعد قليل ، ارتخت أعضائى ، وبدا أننى لن أستطيع الاستمرار فى المقاومة والدنيا تدور بى وتميل ، واقتعدت الطوار مسرعا وفردوس لا أعرف كيف أحميها من الانفلات ، فاحتضنتها بقوة ، وتمكنت من وضعها على حجرى أخيرا . قبلتها على خدّها البارد ، وانداحت رائحتها وملأتنى تماما .

من واجبى الآن دفن فردوس وتجنيب جسمها الصغير التفسخ والانحلال . فى مثل هذا الليل ؟ . نعم . وقبل أن يطلع النهار يجب أن تكونى قد استقررت فى مثواك الأخير يافردوس . تضم الأرض جسمك بعد أن أغطيه بالورد والخوص ، ولن أنقطع عن زيارتك فى الأعياد والمواسم . بعد كل هذا ، سوف أفقدك يا فردوس ، بل وقبل أن ينقضى الليل ، لابد أن أكون قد

أكرمت جسمك . دفعت بذراعي وحدهما ، واستندت على ظهرى ، كى تستقيم أعضائى وأولى وجهى شطر الشرق .

اندفعت مع النفق المائل ، حتى انتهيت الى أول الطريق . وقلت ان هذا هو عملى الأخير ، على أية حال . وعقدت العزم على الانتهاء من واجبى ، قبل أن أستريح . ليس مهما بعد ذلك أى أرض أتوجه اليها . ثمة ارتياح خفى لأننى قررت ألا أشغل نفسي بالبحث عن عزه . ليس هذا فقط ، بل أنني استعدت ملمس غطاء الزير المسنون وهو يغوص داخل لحم العجوز الذى شارك فى التدبير ، وكمن لى هنا وهناك ، ولم يكن هناك مفر من قتله ، بعد أن حاصرنى وأوشك على الظفر بى . كل شيء يمكن احتماله يا فردوس الا رائحتك التى تشبه رائحة الشهداء ، وقد اختلطت برائحة جروحك الوردية .

على يمينى ، وبجوار هذه الناصية الضيقة ، التى يحتل ركنها القريب مدفن احدى زوجات الناصر بن قلاوون بقبته المائلة ، كنا ننحرف مع مواكب الداخلين : نسوة يرتدين السواد ورجال يرتدون بدلا وأولاد وبنات بملابس العيد ، يزحفون ببطء فى ضباب الصباح المبكر . نذهب الى قبر أبى : أمى وشقيقتى منى وأنا ، فى الأعياد والمواسم ، أقف بجوار الشاهد الحجرى المترب أقرأ الفاتحة والسور التى أحفظها ، محاولا استحضار ملامح أبى الغائبة دون جدوى ، بالرغم من تحديقى — لساعات طويلة — فى صورته التى التقطت له عقب مرضه مباشرة ، فى بروازها الخشبى الداكن ، وقد علقتها أمى قبالة الباب .

بين أبى وأمى وجدّى وجدّتى وعمّاتى : احسان وأفكار وفتنات وتحية وأبله فايزه ابنة عمّى وأعمامى : ممدوح وفؤاد وفهمى وعبد الحميد وابنه عصمت ، بينهم جميعا سأجد لك مكانا يافردوس . سيرحبون بك ويؤنسون وحدتك . المهم أن أصل فقط .

أعرف بيت عم « وطنى » الترِبى : الأصفر المطل على الحنفية الوحيدة التى نملأ منها جميعا . أستطيع أن أنادى عليه ليلحقنى ، قبل أن أدلف الى الزقاق البالغ الضيق المفضى الى الفضاء الواسع ، وقد تناثرت شواهد القبور فى المدى ، بينما سفح الجبل يبدو بعيدا هناك ، وبعد أن انتهى من مهمتى تلك ، سيكون بامكانى أن استريح للمرة الأولى بعد زمن خلته دهرا .

على أن الشك داخلنى ، واستربت من هذه البيوت الصغيرة المنتشرة على الجانبين ، بل ان الأرض التى أدب عليها ليست هى نفس الأرض . أكثر صلابة وتماسكا وأيسر ، وخالية من الحفر والمطبات . ثم لمحت سيارة صغيرة مركونة تحت نافذة مفتوحة ترسل ضوءها الى الشارع . لابد أن أكون قد أخطأت الطريق ، ولم يكن هناك بد من أن أنحرف فى الشارع المواجه . وقادنى الشارع الى زقاق أكثر ضيقا . وهذه الرائحة أيضا ليست هى نفس الرائحة التى عرفتها فى الماضى . كانت رائحة موت أيضا ، لكنها تتدفق على مهل ، وربما كان احتمالنا لها يعود الى الخلاء الذى كان لا يحده البصر ، قبل أن يتضح سفح الجبل بعيدا تتغير ألوانه مع صعود الشمس الى السماء .

فى البداية ، لم أصدق أنه الجبل . رحت أحدق خائفا من الدوار ، وقد تمكن الاعياء منى . أغير وضع فردوس على ذراعى ، وأثنى جسمى محاولا الاهتداء الى وضع أكثر راحة . كان ثمة أضواء قليلة ، استطعت بعد لأى أن أكتشف أنها بيوت بالفعل . لم يكن هناك شك فى أنه قد تم هدم أجزاء من الجبل وبنى مكانها بيوت على السفح ، كما أن هناك أجزاء أخرى قد تم تسويتها ، بل ولمحت أخيرا مايشبه طرقا وحوارى تمتد هنا وهناك .

أين المقابر اذن ؟ . كيف أميّز البيوت من المقابر ؟ . هذا الذى أمامى مثلا : هل هو بيت أم مقبرة ؟ وذاك ؟ . والثالث والرابع . وخرجت الى شارع آخر قطعته ركضا ، فلابد أن أجنبك التفسخ بين يدى يافردوس ،

وأجد مقبرة العائلة . والشارع الآخر ، والذى يليه ، وهذه الحارة ، وتلك ، ثم توقفت أخيرا .

عندئذ ، قررت أن أنفض يدى من كل ذلك ، وأيقنت أننى لن أتبين طريقى . كان شارعا ضيقا طويلا ، وقبل أن ينتهى كنا ندلف الى اليسار بالقرب من بيت عم وطنى ، ثم نسرع قليلا ، لأن المقبرة قد اقتربت ، وسوف نرى الكشك الخشبى البنى القديم على الفور . أما كل هذه الشوارع والبيوت القصيرة والشواهد القليلة فلا تعنى لى شيئا ، وليس أمامى الا أن أفكر فى مخرج آخر .

ثمة بناء صغير يقبع بجوارى ، كان يشبه بيتا صغيرا على بابه الحديدى تكعيبة عنب قليلة الأوراق . واقتربت منه أفتش بعينى حتى عثرت على ما يشبه الشاهد . وربما كان ذلك يعنى أن هناك من بنى سورا حول مدفنه ، وأن من لم يبن هذا السور ، تحول مدفنه الى بيت . مضيت أجول بعينى فى كل الأماكن : بيوت هنا وبيوت هناك . وقلت لنفسى أنه لا مفر من مواصلة السير ، وانحرفت مرة أخرى فى الشارع المواجه ، عازما على العودة الى بداية الطريق ، وغير مطمئن للنتيجة التى توصلت اليها حول الأسوار والشواهد والبيوت .

على أننى بعد قليل أحسست بوصولى الى ربوة مكنتنى من مشاهدة شبح المئذنة البعيدة السامقة بصعوبة بالغة . فكرت بسرعة ، واقتنصت ذلك المشهد قبل أن يهرب منى مثلما حدث من قبل : أجل كان صباح عيد . وكان قائد مكتبنا قد اصطحبنى وعساكر آخرين لنمر على مقابر الشهداء ، كى استكمل بعض دفاترى من واقع دفاتر وسجلات المقابر ، بعد أن انتهت الحرب وتناقص عملنا وأوشكنا على ايداع سجلاتنا لدى الادارة المختصة . كان البرد قارسا ، وكان السائق قد سلك بنا طريقا مختلفا ، يمر بجوار هذه المئذنة بالذات . انجلى أمامى كل شىء . كانت المئذنة النحيلة يمكن رؤيتها حين أقف

أمام مقابر الشهداء . نعم . كان ثمة شارع واحد يمتد ويمتد صاعدا من قدّام جامع السلطان برقوق ، الذى يلتصق سوره البحرى بسور مقابر الشهداء .

كان من الميسور اذن ان أنحدر عبر الربوة ، متخذا من المئذنة هدفا . وفكرت فى أنه لا حل أمامى سوى هذا الحل الذى كنت خائفا من الافصاح عنه حتى بينى وبين نفسى . وقلت أنه بالرغم من نجاحى المتكرر فى الافلات من الكمائن والتدابير والشباك التى نصبت حولى ، بل وبالرغم من ثباتى أمام العجوز فى نهاية الأمر ، الا أننى لم أحمل هما كهذا الهم الذى أحمله الآن : كيف اتصرف مع قوة مقابر الشهداء ، ليوافقوا على دفن فردوس لديهم ؟ . اننى لن ألقيها فى الشارع ثم أمضى على أى حال ، ومن المؤكد أننى لن أظل أدور بها حتى تتحلل بين يدى .

وها أنا قد وجدت فى نفسى القدرة على الركض ، وزرقة السماء الخفيفة ولون السحاب الأبيض يتضحان على مهل ، وأنا استسلم لدفقات الهواء القارسة اللاسعة . نعم . كان اليوم يوم عيد بعد الحرب ، وكان المقدم ، وعساكر مكتبنا .. كلنا فوجئنا بهؤلاء القادة الكبار ، وأصابنا ارتباك فظيع ونحن نحاول الافلات من وجودنا معهم فى مكان واحد ، اذ يكفى فقط أن يتطلع لك أحدهم ولا يعجبه ملبسك أو مظهرك ، بل اننى لاحظت كف المقدم وقد رفع يده بالتحية أثناء نوبة الشهيد التى يعزفها البروجى بقفازاته البيضاء بجوار النصب الرخامى المغطى بباقات الزهور الضخمة العديمة الرائحة ــ لاحظت كفه تلك ترتعش ، بينما كان وجهه متقبضا مربدا وهو يجول بعينيه بين اللواءات الأربعة الذين يمثلون أسلحة الجيش المختلفة . كانوا يقفون وحدهم أمام النصب ، ومن خلفهم حرس الشرف يرتدون قفازات بيضاء فى صفين متتاليين ، يؤدون ببنادقهم ذات الأسلحة البيضاء المشرعة سلام الشهيد . عبر النصب ، وبجوار الأشجار الوارفة المتناثرة بين الشواهد ، فى الضباب الخفيف ، كنت ألمح النسوة الصغيرات يرتدين السواد ، وكان بعضهن يسحب معه

أطفالا صغارا يتعثرون ، ويدورون بين الشواهد حتى يختفون . تلك هى ساحة الحرب التى كان مسموحا لى بخوضها ، ما بين المستشفيات ومقابر الشهداء ، أحمل العساكر فى الليل وأهرع بهم الى مقابر الشهداء . بعد أن انتهى سلام الشهيد ، لم يعد أمام المقدم الا أن يفكر فى طريقة للهرب من مواجهة كل هؤلاء القادة ، وتسللنا دون أن نتبادل كلمة واحدة مع القوة المكلفة بالدفن ، والتى كانت غارقة بدورها فى ذهول ولم ينتبه احد منهم حتى لوجودنا . حملت دفاترى بيد ، وباليد الأخرى كنت أحمل رشاشى الصغير ، وتوجهت للعربة ، حيث صاح المقدم للسائق :

« أخرج من هنا بأى طريقة .. وابتعد عن الطريق الرئيسى .. » .

وهكذا انطلق السائق فى نفس الشارع الذى أقطعه الآن ركضا ، ولكن فى الاتجاه المعاكس . كان هو قد انحرف بجوار سور مقابر الشهداء القبلى متجها الى جامع قايتباى ، بينما انتهى انا الآن من جامع برقوق ، قبل أن أصل الى أول سور مقابر الشهداء . تمهلت قليلا ، وجعلت أنهج شاعرا بالاختناق .

اذا كان عم فارس شاويش المقابر موجودا ، فلن تكون هناك مشكلة . أقول له أن معى ابنتى فردوس ياعم فارس . لم أهتد الى مقبرة العائلة ، وأنا أخاف عليها من التحلل . لن يدرى أحد سوانا . وهى تكفيها حفرة صغيرة ، سوف أقوم بحفرها وحدى ، بجوار أحد الشواهد حتى أتعرف عليها عندما أجىء لزيارتها . بل يمكننى أن أقول هذا لأى عسكرى وأتفاهم معه . لكن المشكلة الحقيقية هى أن الحرب مضى عليها خمسة عشر عاما كاملة ، وربما كان عم فارس قد مات ، والقوة المكلفة بالدفن قد عاد أفرادها لأسلحتهم السابقة .

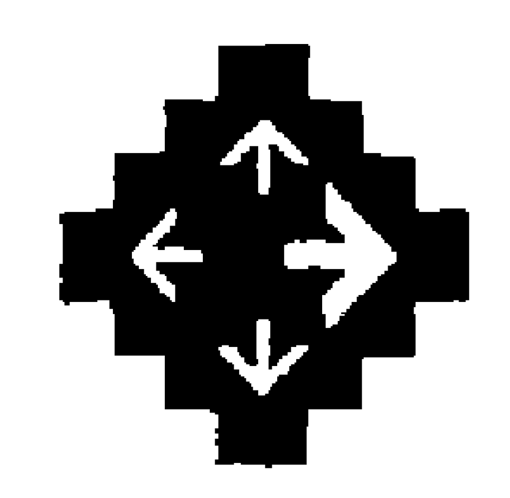
كان الظلام يتبدد على مهل ، وأمكننى أن أميّز صوت أذان الفجر من بعيد ، تردده عشرات المآذن من كل الاتجاهات . وبجوارى مرقت العربة الحنطور السوداء ، يجرها جواد بنى داكن يلمع جسمه المشدود فى ضوء الفجر

الأزرق ، ودفقات البخار تتصاعد من أنفه وفمه . كانت قد انسلت من شارع جانبى دون أن أنتبه لها . فوجئت بها تنقض من يسارى ، ثم تمرق فى لحظة خاطفة ، فى الشارع الواسع ، متجهة الى الشرق . كان المقعد الأمامى خاليا ، ولم أتبين أحدا لحظة مروقها . تابعتها وهى تهتز خالية فى الزرقة الفاتحة ، حتى بدا لى أنها لابد أن تكون قريبة الآن من البوابة الرئيسية لمقابر الشهداء ، حيث أتقدم أنا أيضا نحوها ، حاملا فردوس بين ذراعى ، خائفا من معاودة تفحصها ، ومن تلك الجروح الوردية المفتوحة فى جسمها .

الوراق أبريل ١٩٨٨
ساحل روض الفرج أبريل ١٩٨٩

صدر للكاتب

- السير فى الحديقة ليلاً ــ مجموعة قصصية — دار شهدى ــ القاهرة ــ ١٩٨٤
- النجوم العالية ــ مجموعة قصصية ــ مختارات فصول — هيئة الكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٥
- توبة رجوع ــ رواية — هيئة الكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٩٠
- مدينة السور ــ رواية — دار ثقافة الأطفال ــ بغداد ــ ١٩٩٠
- رائحة البرتقال ــ رواية — دار شرقيات للنشر والتوزيع ــ القاهرة ــ ١٩٩٠



شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة

فى إخراج طباعى متميز

أمواج الليالى/متتالية قصصية/**إدوار الخراط**

◆

اللجنة/رواية/**صنع الله إبراهيم**

◆

الديوان الأخير/قصص + مسرحية/**عبد الحكيم قاسم**

◆

وردية ليل/رواية/**إبراهيم أصلان**

◆

رائحة البرتقال/رواية/**محمود الوردانى**

◆

وكالة عطية/رواية/**خيرى شلبى**

يصدر قريبا

حجارة بوبيللو/رواية/**إدوار الخراط**

◆

المسرح الشعبى/دراسة/**الدكتور على الراعى**

◆

الكتابة عبر النوعية/دراسة + مختارات/**إدوار الخراط**

رقم الإيداع ١٩٩١/٩٧٣٣

مطابع انترناشيونال برس ـــ القاهرة ت : ٣٤٧٤٢٥٩

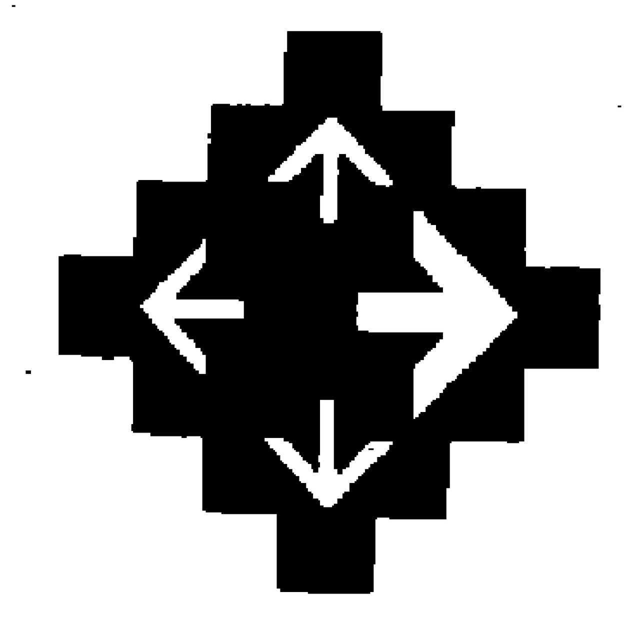
تلك التى لها
رائحة البرتقال

إلى أين يمضى الراوى فى رحلته الليلية ، بعد أن غادر مكانه ، وحمل الطفلة ، وركض وقد تلبّسه الخوف والضجر والفقدان .. ؟ .

تلك التى لها رائحة البرتقال تلقاه فى الوقت الذى يحتاج إليها فيه بالضبط ، وما تلبث أن تغيب ، فيعود للبحث عنها موشكاً على الانفلات من مطارديه الذين يضيّقون الحلقة حول عنقه وعنق الطفلة .. فإلى أين يمضى .. ؟ .

إلى أين يمضى مرتجفاً وقد كاد كل شىء أن يضيع ، ولم يبق إلا ذلك الضجر ساطعاً كاوياً ، عبر القردة المكبلة يسوطها العجوز ، وعبر الدليلة البيضاء التى تصحبه الى الفندق ليفاجأ بالمحتفلين بالانتفاضة ، وعبر أشجار حجرية تتتالى على الطريق .. إلى أين يمضى .. ؟ .

رائحة البرتقال .. الرواية الثانية لمحمود الوردانى بعد روايته الأولى « نوبة رجوع » ، محاولة للانفلات والبوح والخروج بعد أن تعددت أشكال وهيئات القيود القاسية غير المرئية .



دار شرقيات للنشر والتوزيع

